د. ابن السائح الأخضر

صحراء الظمأ

رواية

تفنيلت
طباعة نشر اتصال

وزارة الثقافة

د. ابن السائح الأخضر

صحراء الظمأ

رواية

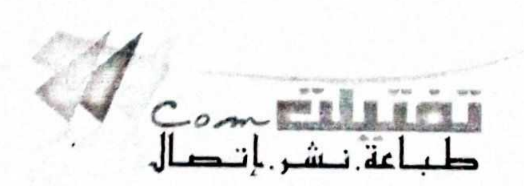
صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب





العنوان : صحراء الظمأ
الإعداد :ابن السائح الأخضر
الإخراج : قسم التصفيف دار تفتيلت
ر.د.م.ك:978.9961.9875.1.3
الإيداع القانوني :1133/2013



12 شارع وهراني عبد القادر واد الرمان العاشور الجزائر
الهاتف : 66 11 30 021

إهداء

إلى روّاد الحرف العربي.

إلى عمالقة الأدب والفن، أصحاب الوحي والقلم

محمود درويش

نزّار قباني

الطيب صالح

أحلام مستغانمي

إبراهيم الكوني

إلى الطيب صالح مرّة ثانية.

عبقري الرواية العربية بدون منازع.

خاصّة...**موسم الهجرة إلى الشمال**...التي تمثّل لي

– نبعا لا ينضب–.

إلى هؤلاء جميعا أقدّم شهادة عرفان وامتنان لما قدّموه.. خاصة الطيب ولد العروسى بمعهد العالم العربي بباريس الذي يمثل لي حلقة وصل بين الشرق والغرب..

صحراء الظمأ

مصطفى على غير عادته هذا المساء، يبدو متجهّما جاحظ العينين يسير ببطء منحنيا في حركة نصف دائرية تعكس حالة التعب والأرق التي هو فيها.

سألناه ولم يجب... رفعنا أصواتنا.. صرخنا.. نظر إلينا ولم يكترث... فأي جنون أنت عليه يا مصطفى...

مصطف يا سادتي ألفناه رجلا كريما سخيّا وسيما بهيّ الطلعة مليح الوجه، أنيق المظهر يشتغل موظفا في الدولة، يشرف على السياحة، وهو يتردد على هذا الفندق الواقع على ضفاف الطاسيلي في أقصى الجنوب أثناء المهمات التي تفرضها عليه وظيفته كمفتش عام للسياحة.

وقد عاهدناه اجتماعيا مزحا مولعا بالطبيعة مفتونا بها، يحب النخيل يعانق أشجارها ويساهم في غرسها حباً لهذه

الشجرة المباركة مثل ما يقول... ولا تراه إلا واقفا تحتها محرّضا على غرسها أو يتكلم عن تمرها وفوائدها كمصدر ثروة للبلاد والعباد وقبلة السائح الذي يحنّ إلى الجنوب، إلى الحرّ هربا من بلاد الثلج والبرد والصقيع.

ولكن مصطفى على غير ما نعرف هذا اليوم.. نزل من غرفته ساخطا ملوّحا على النادل الهاتف... الهاتف... ها هو ذا يا سيدي.

يأخذه على عجل يتّصل ببيته، الهاتف يرنّ، يرنّ وما من مجيب.

يتريّث برهة ثم يعيد الكرّة من جديد، وما من أحد.. يترك الهاتف ويسير بخطى متثاقلة طالبا قهوة يرتشفها ببطء دون أن ينتبه أنها بدون سكرّ..

يتراجع قليلا إلى الوراء.. يجلس متثاقلا ليجمع أنفاسه ويصدرها دفعة واحدة. يبقى صامتا مدّة من الزمن ثم يخرج سيجارة ويشعلها على عجل.. يمتصّها بنهم فيخرج دخّانا كثيفا غطّى جوّ القاعة يتساءل في قرارة نفسه أين ذهبت أين.. ربّما عند خالتها.. ولكن لا تزورها إلاّ نادرا.. ربما هناك.. يأخذ الهاتف يضغط على أرقامه يسمع ذبذبات صوتية

متلاحقة.. وأخيرا يرنّ في البيت يلمّ شمل نفسه كأنه يستعدّ للردّ.. يخفق قلبه خفقات متسارعة ألو.. الو أنا مصطفى.. سارة زوجتي هناك...

لا لم نرها منذ زمن، يقفل الخط ويتراجع.. يرتفع صداع رأسه، تتزايد الحمّى مع حرارة الشمس في فصل الصيف، يشعر بالدوار والهذيان... يتساءل أين ذهبت، هل استغلّت غابي لتمارس فعلتها الشنيعة.. الفاجر سالم، إنه زير نساء لا يملّ من الطّراد كالثور الهائج، يضع يده على رأسه لا.. لا.. إن بعض الظنّ إثم، إن بعض الظنّ إثم، يتمتم، أعوذ بالله من الوسواس الخناس... زوجتي تذهب إلى بيت والدها في الريف، لا تستطيع البقاء وحدها كل هذه المدة.

يعود مصطفى إلى غرفته في الفندق، يتمددّ قليلا ثم ينهض واقفا كأنه يستعدّ لحدث عظيم يفتح حقيبته يبحث.. يستخرج دفتره.. يقلّب أوراقه ثم يصرخ ها قد وجدته.. وجدته أخيرا يردّ أرقامه على عجل 35.66.01 نعم هو.. هو.. ينزل مسرعا.. الهاتف.. يقبضه بملء يده ويحرّك أزراره ويمسح باليد اليسرى العرق المنساب من جبهته العريضة وهو يقول حرّ وضيق اختنقنا واحترقنا أين الماء.. هاهو.. يردّ النادل.. يشرب جرعات متتالية قبل أن يمسك السمّاعة.

ألو.. ألو.. نعم أنا مصطفى.. هل سارة زوجتي هناك، يردّ صهره الطاهر لا لم نرها منذ مدّة من أين تتكلم.. يغلق مصطفى الخط دون أن يعي ما يفعل، يزمجر يثور.. لا..لا هذه جريمة سأقتلها، يقول مصطفى.. فعلها السافل الفاجر إنه أحمق لا يعرف إلا نزواته لا يملّ ولا يفتر حتى ينال مراده من المرأة التي يريدها.. لا يفرّق بين امرأة وأخرى حتى ولو كانت متزوجة.. اعرفه واعرف مغامراته فكثيرا ما يتباهى بها أمام أصحابه وخلاّنه

هل فعلها...

يردّ مصطفى، سأقتله سأقتله شرّ قتلة.. سأقتلها معه أيضا. لا، لا لن تفعل أعرفها لا تقوم بذلك.

يسكت برهة ثم يعود إلى نفسه.. من يمنعها في غيابي.. نعم رأيته قبل رحيلي بمدّة يتردّد على عمارتنا، ماذا عساه يفعل..

يتخيّل زوجته بعد أن شعرت بحرّ الشمس وقد نزعت ثيابها واكتفت بقطعة خفيفة تلبس وتنزع على عجل، تصوّرها وهي تطلّ من الشرفة تتلمس نسمة أو هواء.. شعرها الأشقر الطويل نهداها المنتفخان ككرة عاج بطنها المنبسط الليّن..

شعر بسالم يدخل غرفتها يمسكها.. يصرخ مصطفى لا..

لا.. ينتبه إليه المارّة، يقول أحدهم لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

يعود مصطفى إلى غرفته بالفندق يحمل حقيبته ومتاعه على عجل ويمشي مهرولا..المحطة.. المحطّة.. أين الطريق..

مسكين مصطفى لو رأيته لخيّل إليك انّه قادم من أدغال إفريقيا، العينان محمرّتان.. شعر أشعث بدون نظام.. أزرار قميصه في حركة فوضوية.. العرق يتصبّب من أطراف جسده، الوقت الآن القيلولة.. الشمس تكاد تلامس كبد السماء حرارة قاتلة والبلدة خالية من أي حركة، حتى الطيور والحشرات اختفت في مخابئها.. فلا تبصر إلا النخيل تتعانق أغصانه في حركة دائرية متقاطعة أحيانا.

مصطفى أعمته الغيرة لا يبصر إلا زوجته وهي في أحضان ذلك الملعون الجائع.. اللعنة.. اللعنة يقول مصطفى.. ينتبه لنفسه فجأة يجد نفسه وحيدا إلا من ظل شجرة عر عار لا حول لها ولا قوة لم تستطع الصمود أمام حرّ الشمس القاتل.

يأخذ لنفسه مكانا في الظلّ يقيه بعض هذا اللهب القاتل، ويتساءل هل من سيارة؟ هل من حافلة تنقلني؟

مصطفى يا سادتي يقيم في الغرب الجزائري وبلده على بعد

آلاف الأميال، إنه يريد أن يقطعها في لمح البصر ماذا يفعل؟ وهل يستطيع صبرا؟.

هاهو يتململ كطائر مكسور الجناح، يتمتم يهذي ينتصب واقفا.. يجلس.. يتمدّد.. وبينما هو في حركة شبه مستقرّة يشعر بظلّ طويل يحتويه، ينتبه مذعورا.. من صاحب الظلّ الطويل؟

هو أنا يا سيدي.. رفيقك في هذا الدرب الطويل.. لا خوف عليك فطريقنا واحدة وسفرنا واحد.

نظر إليه مصطفى.. يتأمّله... رجل طويل القامة نحيف ملثّم الوجه لا تبصر منه إلا زرقة العيون.

يلبس عباءة تحوي جسمه، يقبض وسطه بحزام يتدلّى منه خنجرا، ملامحه من هذه البيئة وخصائصها.. إنه الرجل الأزرق التارقي.. يدعى "إينازم".

يقول إينازم :

باستطاعتنا أن نقلّ سيارة لو كان عددنا أكثر فالأرض بعيدة والمبلغ مرتفع؟

يجيب مصطفى سأدفع أين السيارة؟ أين؟ يردّ ثالثا قدم من بلاد بعيدة؟

أنا معكم هل العدد اكتمل؟..

يردّ السائق المختبئ بسيارته خلف هذه الأشجار، ينقصنا واحد ويكتمل العدد.. باستطاعتي أن أغامر إن توفر النصاب.. فالمسافة بعيدة وطريقها وعرة ومسالكها ضيّقة تستلزم الحيطة والحذر وأخذ العدّة.

يقف الرجلان وثالثهما مصطفى في حوار وجدل على المبلغ الذي ينبغي الاتفاق عليه. تتداخل الأصوات.. يعلو الصخب.. وتكتمل فرحة الثلاث بقدوم رابع ينهي الجدل القائم ويمتطي الأربعة أماكنهم في السيارة وتنطلق الرحلة..

يقترب الوقت الآن من الظهيرة.. اليوم الخميس على ما أذكر، السيارة تبدو جديدة من نوع "تويوتا" لها هيكل قوي ومحرّك يتّسع لخمسة وعشرين حصانا.. يقال أنها صنعت خصّيصا للمهمات الصعبة والطرق الوعرة.

يسكت الجميع تحت وطأة زئير المحرك القوي.. لا تبصر إلا السراب يظنّه الظمآن ماء، الأرض منبسطة لا عشب فيها ولا شجر.. قاحلة دكناء كأهلها...كل شيء فيها يوحي بالخوف والرعب والمجهول.

يتململ مصطفى.. يتداخل عليه الحلم مع اليقظة.. يرى

السراب يظنه بحرا.. يحدّث نفسه قائلا : أخطأ طارق حين قال لأصحابه: البحر وراءنا والعدو أمامنا.. فنحن في بلد البحر أمامنا والعدو أمامنا أيضا.

ثم يتذكّر عدوه اللّدود سالم الذي يخون عرضه الآن.. من يدري أن زوجتي سارة في حضنه الآن يفعل بها ما يشاء.. إنه وحش مفترس ظمآن إلى جسدها.. فبمجرّد أن يراها من الشرفة في لباسها الرقيق الشفاف تنبح الشهوة في جلده ذئبا مسعورا تجعله يقتحم البيت.. ولا يتورّع في فعل ما يريد... يا إلهي.. يضرب يده على رأسه ويقول للسائق: أسرع.. أسرع.... ينهض الجميع على هذا الصراخ، يتكلم السائق.. يا أخي في التأني السلامة وفي العجلة الندامة، يستيقظ أحدهما متثائبا" لا حول ولا قوة إلا بالله "

يكتم مصطفى أنفاسه.. يتأملهم الواحد تلو الآخر.. ويقول مع نفسه.. مساكين هؤلاء يقضون أعمارهم في المنفى بحثا عن لقمة العيش.. ويتركون زوجاتهم كالدجاج المشحم عرضة للذئاب والثعالب تنهش لحمها وتزرع بذرها ليجني هؤلاء البنين والبنات.

كذب محمود درويش حين قال: أبنائي ثمانية وتاسعهم سيأتي بعد صيف.. من أدراه أن التاسع من بني صهيون. ألم

يكن صراع الأفكار الذي نعيشه اليوم هو في الحقيقة صراع الأعراق والأجناس المختلفة.. صراع الدماء المتباينة.

ينتبه مصطفى من خياله مردّدا " أعوذ بالله من الوسواس الخناس "إن بعض الظن إثم.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

يزداد طول الطريق ويزداد معها الأرق والتعب، كل شيء رمادي داكن.. يزداد الحرّ.. كل شيء ينتعل ظلّه.. عبارة ردّدها الجاحظ كثيرا وتأكدت اليوم.. من يوقف لهيب الشمس المشتعل.. كل واحد يتململ في مكانه كالطّير المشوي، عرفت كيف وجد الإنسان الأسود في هذه المنطقة، إنها الشمس المحرقة أحرقت ساكنيها بحرّها حتى النخاع وتجسّدت حفريات هذا المكان الداكن على سمرة البشر ولونهم.. إنها قانون الطبيعة تعطي وتأخذ تحنّ وتقسوا فهي كالمربّي الحكيم تلفحنا بنارها وتشفق علينا أحيانا.

يتكلم السائق.. يريد كسر حاجز الصمت: لا يختلف مناخ القسم الغربي من الصحراء الجزائرية عن المناخ السائد في قسمها الشرقي لتشابه الإقليمين في معظم شهور السنة وبمدى حراري سنوي كبير وقد أثّرت هذه الظروف المناخية على النبات الذي يتّسم بالضآلة وبقدرته على التكيّف.. ثم يواصل.. باستثناء الواحات كانت الصحراء مرادفا للجفاف

والجدب، وإذا كان جزء كبير من الصحراء قاحلا فإن جزءا كبيرا منها أصبحت تفوق خصوبته بعض الأراضي في الشمال.

ولكن قلت.. أيضا في الإخصاب والولادة وارتفاع نسبة البنين والبنات، فالمرأة التارقية هنا كطائر الحبار عرضة لأيّ طائر رخو ذكر يريد التزاوج والتكاثر.

التفت إليّ السائق وضحك.. عرف المغزى من كلامي وقال: سترى صاحبك "حيدر عبد السلام" عمّا قريب.. سترى فحولته أمام المرأة التارقية والمالية بل حتى الأوروبية والأجنبية، رجلا فحلا يحوم حول الأنثى أينما وجدها فهو أحقّ الناس بها.. وضحك وضحكت معه أيضا.

يظهر أن حيدر يريد الكلام.. يريد المداعبة، فهمت ذلك من قوله: هل ذقت المرأة التارقية قلت لا.. لا.. أعوذ بالله

قال: أنت مخطئ يا سيدي، المرأة التارقية حلوة المذاق شهية إلي حدّ الجنون ممتعة وممتلئة تملأ عينيك وحسّك في جميع الأوجه والاتّجاهات.. ويقال أنها تنزع البرد.. وتملك رغبة قوية في المرح والمداعبة، جرّب قوتك يا رجل فأنت لا تحتاج إلى سرير أو غرفة أو أضواء.. ابطحها أرضا على تلك الرمال الذهبية وجرّب أسلحتك.. اضرب بالسيف والرمح

والنشّاب استعمل القوس والنبل فهي تتّسع للجميع بما فيهم أنت.. باستطاعتك أن تدخل بطولك وعرضك وتغوص في الأعماق حيث اللذّة والمتعة والألم.. يبدو أن حيدر متهوّر أكثر من اللزوم.. ولا أنكر انه غرس في نفسي نوعا من الرغبة في ممارسة هذا النوع من النشاط. أزيز المحرّك يعلو مع الأماكن المرتفعة.. السّراب يلوّح من بعيد كأنه البحر يحسبه الظمآن ماء فيجدّ في السير إليه.. وكلّما قرب منه ابتعد عنه مرّة ثانية حتى يعتريه الكلال فيهلك..

إينازم الرجل الأزرق غاصَ في نومه..

تبدو على حافة الطريق بقايا سلاسل جبلية قديمة تتخلّلها مساحات شاسعة تغطّيها الكثبان الرملية.. أرض خالية.. نمرّ على واد يسمى واد الخراب.

التفتّ إلى يميني وجدت "الطيب" الرجل الملتحي مستيقظا.. وأظنه سمع ما دار بيني وبين السائق "حيدر" من كلام فبدت عليه ملامح الاشمئزاز.. وضع يده على لحيته وقال: زمن الرجولة ولّى.. ثم واصل كلامه.. أتعرفون سبب هلاك المجتمع وفساده.. نظرنا إليه في صمت.. سكت برهة ثم قال.. هلاك المجتمع وفساده سببه المرأة.. خاصة المرأة الجميلة المغرية المنحلّة.. وقد حذّرنا رسول الله صلى الله عليه

وسلم من هذا النوع من النساء حين قال " إياكم وخضراء الدمن.. قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله. فقال :المرأة الحسناء في منبت السوء ".

هنا نهض مصطفى من غفوته صائحا نعم.. نعم.. خضراء الدمن.. هي مصدر هلاك المجتمع وبلائه، يتساءل مصطفى.. لم أنتبه لهذا الحديث.. وقد أوصتني أمي بعدم الزواج من سارة لأنها في منبت سوء.. وأوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، خضراء الدمن.. خضراء الدمن.. صدقت يا رسول الله ليتني قرأت هذا الحديث من قبل وليتني سمعت رأي أمي.. ثم ردّد قائلا إنك لا تجني من الشوك العنب.. إنك لا تجني من الشوك العنب.

يستيقظ الجميع تحت وطأة أزيز المحرّك المرتفع، يشعرون بالتعب والأرق، يطلبون من السائق حيدر بعض الوقت للاستراحة، يجيب حيدر.. نتجاوز هذا المرتفع الخطير ونمرّ على المنحدر الذي يؤدي إلى.. وادي تامنغست.. نسترح هناك قليلا حيث أشجار العرعار، نستظل بظلالها وهناك بعض الأشواك التي تعطي لونا اخضر للوادي.

سمعنا لقول "حيدر" فهو أدرى بفيافي الصحراء.. وما هي

إلا لحظات حتى وجدنا أنفسنا في هذا الوادي الأخضر.. فيه كثير من أشجار العرعار والطرفة.. وعلى مقربة من هذا الوادي نخلة باسقة الطول ضاربة بأعماقها في الجذور.

أوقف حيدر السيارة ونزل الجميع.. وبدأ "اينازم" في تحضير الشاي وجلس الجميع حوله مكوّنين نصف دائرة.

أمّا مصطفى فور نزوله لم يكترث بأصحابه.. واتجه مباشرة إلى النخلة واتّكأ عليها سارحا بعقله بعيدا بعيدا وهو يتمتم.. خضراءالدمن.. خضراء الدمن.. سارة منبت سوء، سأقتلع هذا المنبت من جذوره.. ثم نظر إلى أشواك الوادي وتأمّلها.. فالأشواك عادة ما تحيط بالوردة، ثم قال.. نعم هي خضراء الدمن.. يجب قطعها لتستريح الناس من عذابها، ألم يقل الطيب هي مصدر بلاء المجتمع وهلاكه... يتخيل مصطفى نفسه "سيف بن ذي يزن" أو"خالد بن الوليد " قاهر الطغاة يمتطي صهوة جواده وهو يلوّح برمحه وسيفه مقطعا هذه الرؤوس الواحدة تلو الأخرى وهو يردّد ويقول اقتلوا خضراء الدمن.. لا تتركوا كبيرة ولا صغيرة.. جاهدوا، قاتلوا أعداء الله والرسول.. مصطفى يا سادتي لو نظرت إليه في هذه اللحظة وتأمّلته قليلا لفزعت من مظهره الذي يوحي بالجنون.. عيناه جاحظتان فم مفتوح، ..يردّد بين الحين والآخر.. قاتلوا أعداء

الله والرسول.. قاتلوهن.. اقطعوا رؤوسهن.. لا تأخذكم بهن رأفة.. اقتلعوا جذورهن... ينتبه الجميع فجأة لمصطفى.. يقول أحدهم: مسكين مصطفى، يقول الثاني: لا حول ولا قوة إلا بالله.. قال حيدر.. لقد صرعته الشمس بحرّها.. لكن سرعان ما يشفى حين ندخل في الأجواء الباردة.. هاهم ينادون عليه لشرب الشاي ولم يكترث.. رفعوا أصواتهم بكل حدة.. لكنه.. بقي كتمثال من البرونز لا يتحرك حتى وصل إليه اينازم".. حرّكه.. رشّ عليه بعض الماء، هنا.. استفاق مصطفى من حلمه والشرر يتطاير من عينيه مردّدا.. لا إله إلا الله.

عادت الجماعة إلى ما كانت عليه مواصلة شرب الشاي.. قدّموا كأسا لمصطفى.. شربه على عجل.. وبعض الماء لغسل وجهه فغسل.. وقد استفاق وعاد إلى رشده وانتبه من خياله السارح.

أمّا حيدر فقد اقترب منّي ووضع يده على كتفي قائلا: نحن على مقربة من "قمة تاهات" وبمجرّد عبورنا "لواد تامنغست" سنجد أنفسنا في مدينة "جانت" حيث مهرجان الأغنية التارقية.. وسترى العجب العجاب وضحك بل قهقه بمليء شدقيه.

تعجبت من "حيدر" فهو سائق عالم بدروب الصحراء

ويعرف الشيء الكثير عن جغرافية المنطقة.. ركبنا السيارة وأخذ كل منّا مكانه وانطلقت الرحلة.. مصطفى يبدو أحسن ممّا كان عليه.. التفت إلى "إينازم" الذي هو بجواره وتأمله مليا.. يتوقف عند الخنجر الذي يتوسط حزامه.. لقد أعجبه هذا الخنجر وتمنّى شراءه لحاجة في نفس مصطفى لا يعلمها إلا الله.

مصطفى يا سادتي أعمته الغيرة.. لا ينظر إلا لسارة وهي في حضن غريمه سالم.. سواء فتح عينيه أو أغمضها.. في حلمه أو في منامه.. واقفا أو جالسا.

يتكلم "إينازم.. "مازالت المدينة بعيدة وطريقها وعرة وانعراجاتها كثيرة.

يردّ عليه "حيدر" بعد أن لمّح بإشارة من عينه.. في سبيل الهدف والغاية يهون كل شيء وكل مهاجر وهجرته إلى ما هاجر إليه.

ضحكت وقلت: فهجرة "حيدر" من اجل امرأة ينكحها أو يتزوجها.. وهجرة "إينازم"الحضور لمهرجان جانت والتجارة.. أمّا مصطفى فيريد الانتقام.. لكن الطيب والسعيد اللذين يجلسان في المقعد الخلفي لا نعرف عنهما شيئا، قلت هذا في

نفسي ولم أستطع الإفصاح عنه علنا.

تطول الطريق ويزداد معها الحرّ.. تبقى السلاسل الجبلية رغم تعريتها صامدة، لا أثر لحيوان أو نبات أو شجر هنا.. حتى الطيور تكاد تنعدم باستثناء طائر يحلّق في السماء بعيدا متّجها نحو الشمال.. يحضرني لغز يتداوله سكان الوسط. حين كانت وسائل الترفيه والتسلية منعدمة.. أنا نجري وهي تجري فاتتني بنت الملعون... هي الطريق بدون شكّ ما أطولها ولا تستطيع اللحاق بها.. كل شيء يبدو ساكنا في هذه اللحظة إلا أزيز المحرّك الذي يزعج الصمت في هذا الربع الخالي من الوطن، مازالت الشمس على شدّتها وقسوتها..ما زال السراب يتلألأ من بعيد كأنه البحر... أشعر بحركة خفيفة من الخلف.. أنتبه أجد السعيد يقرأ في جريدة كتب على وجهها بالخط العريض.."ما يثير القلق بالنسبة لبلادنا في الآونة الأخيرة هو بداية تفشي ظاهرة تعاطي المخدرات بشكل يبعث عن الانشغال، فالظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هيّأت نفسيا وماديا فئات اجتماعية واسعة للبحث عن طرق ووسائل للهروب من الواقع والبحث عن اللذّة معا وذلك في غياب وسائل تربوية وترفيهية من جهة والبطالة التي شملت جزءا كبيرا من الشباب الذي لم يعد يرى آفاق مستقبلية إلا من

خلال زاوية مظلمة لانسداد كل الأبواب أمامه..لا دراسة.. لا عمل.. لا سكن.. الشيء الذي يتناقض مع أحلامه وطموحاته مما يجعله يتأرجح بين واقعه المرير وطموحه المشروع »...عن جريدة الخبر 14 جوان 2000

قلت المخدرات، المخدرات هي بدون شكّ آفة خطيرة.. يسمعني السائق "حيدر عبدالسلام" المخدرات آفة خطيرة.. من قال لك.. إنّها نعمة لا تنسى.. ووسيلة ربح وترفيه ومصدر رزق ثم التفت إليّ..قل لي بالله عليك.. كيف يعيش المواطن مثلي في هذا الربع الخالي الذي يتساوى فيه الليل مع النهار والصبح مع المساء.. لا عمل.. لا ترفيه.. لا حركة.. اللهمّ إلاّ المخدرات التي تضع لك جنّة في الحلم أو الخيال لا يهم، المهم تنسيك هذه الهموم.. أضف إلى ذلك أنها مصدر ثروة..نظرت إلى "حيدر" تأمّلته قليلا.. لا أنكر إعجابي به.. رجل جريء رغم تهوره.. قوي البنية مفتول العضلات وسيم أسمر ناعم الشعر أسوده، ملامحه متناسقة منسجمة مع وجهه الطويل..عيناه برّاقتان لامعتان فصيح اللسان ينبض بالدم العربي الخالص.. هو في مقتبل العمر لا يتجاوز الثلاثين من عمره.. خفيف الروح.. لمجرّد أن تتكلم معه يخيّل إليك انك تعرفه منذ زمن، يميل إلى الضحك والسخرية ولا يبالي..

"حيدر" غريب الأطوار يا سادتي من يعرفه لا يملّ مصاحبته.

يتدخل الطيب بكلام جريء هذه المرة.. سبب البلايا والمصائب الدولة نفسها.. لأنها لا تحكّم شرع الله، فتحت حانات الخمر بجوار المساجد وشجّعت الاختلاط في المدارس والجامعات والملاهي الليلية.. شجّعت الزنا وفتحت بيوتا للدعارة علنا، كل ذلك باسم الديموقراطية تارة.. وتارة باسم حقوق الإنسان.

قل.. أين نحن من دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال: لو عثرت بغلة في الشام لخفت أن يسألني الله لماذا لم أسوّي لها الطريق.

استبدلت قانون الشرع بقانون الكفر والطغيان.. نعم إنها دولة كافرة ظالمة ينبغي محاربتها حتى ترجع إلى أمر الله.

فاجأني كلام "الطيب" تأمّلته.. رجلا ملتح يضع قبّعة بيضاء على رأسه.. يلبس عباءة ويمسك مصحفا بيده.. متديّن إلى درجة الغلوّ، تبد وعلى راحة يده أثر الحنّاء.. عيناه سوداوان من فرط الكحل.. يكفّر من يشاء ويلعن من يشاء.. رغبت في الردّ عليه لكن لم تتح لي الفرصة لأنه دخل في جدال مع "حيدر" يحتدم النقاش ويستفيق مصطفى من غفوته..

يحدّق في "الطيب" ثم يقول: بالله عليك قل لي ما مصير الزاني والزانية؟ ما حكم الشرع في ذلك؟

يردّ الطيب بحدّة: الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله.. يردّد مصطفى مائة جلدة غير كافية لسارة وسالم، طعنت في شرفي.

يتخيّل سارة مجرّدة من ثيابها.. تتداخل عليه الصوّر، تارة ينظر بالألوان.. وتارة لا ينظر إلا بالصورة الرمادية التي تقتصر على الأبيض والأسود.. ثم يصرخ.. لا.. لا.. مائة جلدة غير كافية، مائة جلدة غير كافية.

ينظر إليه الطيب ويؤكّد.. مائة جلدة للمرأة التي لم تتحصّن بعد (لم تتزوج).. أمّا المحصنات من النساء والرجال فترجم، تحفر حفرة تصل إلى صدرها وترجم بالحجارة حتى الموت، إنّها أحكام ردعية قاطعة تضع حدّا للزنا المتفشّي في بلادنا يقول الطيب.

يعتدل مصطفى في مكانه.. تبدو عليه ملامح السرور، يظهر أن الحكم أعجبه وأقنعه فيما يخصّ زوجته سارة وسالم.

يسكت الجميع.. "إينازم" مازال غاصّا في نومه غير مكترث بما يدور لكن الغريب في الأمر أن السعيد لم يتفوّه

بكلمة واحدة.. كأن هذا الجدل لا يعنيه.

تتواصل الرحلة.. مازال السراب يضرب من بعيد.. ما يزال المكان واحدا بتضاريسه وسهوله ووديانه ومرتفعاته.. لكن الجديد هو هبوب بعض النسيم البارد القليل.

شعرت بطول المساء وتوقّف الزمن.. لم أجد له تبريرا مقنعا وكأن المساء لا يريد الزوال.. هنا خطر لي مقطع لهنري ميشو لا أدري أين قرأته ... أمسيات، أمسيات، كم من مساء لصباح واحد... شعرت بطول المساء على الفترة الصباحية القصيرة وهذه ظاهرة نشعر بها في المدن الجنوبية خاصّة في فصل الصيف.

هنا طلب منّا الطيب التوّقف قليلا لأداء صلاة "العصر" فالوقت كما يبدو متقدّما رغم حرارة الشمس.. نزل الجميع وتقدم الطيب لأداء الصلاة وقبل أن يكبّر ضرب بكفيّ يديه على الرمل مردّدا.. فتيمّموا صعيدا طيبا وامسحوا بوجوهكم وأيديكم ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج..

صلّى الجمع باستثناء "حيدر عبد السلام " الذي بقي في السيارة، وبعد انتهاء الصلاة بدا كل واحد يذكر على حدة. رأيت الطيب يقترب من مصطفى ويقول له: قل معي:

...اللهمّ إنّا نعوذ بك من الهمّ والحزن ونعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ...وأمره أن يحفظها ويعيدها سبع مرّات عقب كل صلاة فهي تذهب الهمّ والحزن وتصفّي قلب الرجل وتبعد كدره. يظهر أن الطبيب علم بحال مصطفى وهمومه وسبب أحزانه.

حيدر الذي يستعجل الجماعة هذه المرة. يأمرهم بالركوب متذرّعا بطول الطريق وبعد المسافة.

تنطلق الرحلة صوب "جانت"، كل شيء هادئ صامت إلا من أزيز المحرك الذي بدأ يرتفع مع تلك السلاسل الجبلية الآخذة في الارتفاع، يبدو أن هذه المنطقة كانت بركانية في عهد من العهود.. ربّما العصر الحجري.. شعرت بهذا من خلال الصخور المشكّلة بطريقة غريبة أشبه بجذوع أشجار صلبة أو أوتاد.. يزداد المرتفع علوا ويزداد محرّك السيارة أزيزا.. شعرت أننا على قمّة "تاهات " التي تمرّ على "وادي تافاساسات " ثم جانت حيث المهرجان والأغنية وحيث المرأة التارقية.. خفق قلبي وشعرت بغبطة ينتابها خوف شديد.

تكلّم الطبيب في الأخير ... كافر من لا يصلي ... وأنت كافر وجب عليك القتل.. يردّ "حيدر" فجأة.. الكافر هو المشرك المنافق الذي أنكر وجود الله أمّا أنا فأوّحد الله ولا أشرك به

أحدا.. أؤمن بقضائه وقدره بأنبيائه ورسله.. يحتدم النقاش يتفرّع الكلام.. يظهر "حيدر" عالم بالدّين أيضا.

قال بصوت مرتفع " الإيمان ها هنا.. الإيمان ها هنا " مشيرا إلى صدره مستشهدا بالآية الكريمة ... قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ...وإذا كنت غير مؤمن ولم يتمكّن الإيمان من قلبي بعد.. فلا تنكر إسلامي فأنا مسلم بالفطرة والسليقة أوحّد الله وأؤمن به في السرّاء والضرّاء ولا أنافق ولا أتظاهر بالإيمان عن غيري.

ينطق الطيب بحدّة أكبر: مادامت الدولة كافرة فأنت كافر مثلها.

يردّ "حيدر" ومن أدراك وما هي حججك، البيّنة يا أخي.. يصرخ الطيب غاضبا ألم تقرأ الآيات الكريمة...من لم يحكم بما أنزل الله فأولائك هم الكافرون....

... ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون ...

... ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون ...

فالدولة كافرة.. ظالمة.. وفاسقة وأنت مثلها.. عرفت هذا من كلامك وعدم صلاتك.

ينهض مصطفى من نومه مذعورا.. يتثاءب، ثم يسأل.. لا

يهمّه من هذا النقاش إلا مصير الزاني والزانية.. يردّ الطبيب غاضبا: ... جهنّم وبئس القرار... ولكنه شعر بأن مصطفى يلحّ أكثر.. يريد أن يعرف المزيد عن عذابهم في القبر ويوم البعث.

شعر الطبيب بنوع من الشفقة اتجاه مصطفى فاقترب منه بصوت هادئ يسمعه مصطفى ولا يسمعه غيره.. أمّا الظالم والفاسق وما يندرج في دائرتهما، عندما يوضع في القبر يأتيه رجل نتن يقول له أنا فعلك وعملك ويبدأ القبر يضيق عليه حتى تتداخل ضلوعه وأحشاءه مع بعضها البعض.. وقد تظهر أعماله وأفعاله على شكل حيّات وأفاعي وثعابين وعقارب.. العقرب مثل البغلة تلسعه في أي حركة تصدر منه.. وقد بيّن لنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في إسراءه ومعراجه عن المرأة الزانية التي وجدها عارية معلقة من ثدييها تنتظر بئس القرار.

لأول مرة أرى مصطفى ضاحكا مبتسما.. يظهر أن كلام الطبيب أراحه.

لا يهمّ مصطفى في هذه الدنيا إلا الثأر لعرضه وشرفه.. وهمّه أن يرى " سارة " في جهنم وبئس القرار مثلما يقول الطبيب.

يلتزم الجميع الصمت برهة، يشعرون أن السيارة منحدرة..

يكتشف الجميع أن " قمة تاهات " تم تجاوزها.. سرعة السيارة تزيد.. ولم يبق إلا واد " تافاساست " وندخل جانت يقول حيدر.. ثم التفت إلى السعيد.. مالك صامت ولماذا لم تساعدني في الحملة المسعورة التي أعلنها الطيب ضدّنا.

يتكلّم السعيد بصعوبة.. ظهر عليه اللحن، لا يحسن نطق الحروف جيّدا.. قال لا يهمّني وسكت..

سعيد يا سادتي.. متوسط القامة مربع القدّ.. أشقر الشعر، أبيض اللون أحمره.. انفه مدبّب إلى الأعلى كأنه من بلاد الروم.. رقبته ناصعة البياض..

سألناه عن أصله ونسبه فقال.. أنا امازيغي من منطقة تيزي وزو.. مناضلا في حركة المجتمع الثقافي *RCD* جاء إلى منطقة التوارق في إطار الحملة لحزبه وللمّ الشمل الأمازيغي مثلما يقول.

استفزّه حيدر بالكلام فقال: أنا لست عربيا، أنا بربري امازيغي.. البلد بلدنا وانتم المستوطنون المعمّرون، أخرجوا من أرضنا.

ثم التفت إلى "إينازم" فقال: صديقي إينازم في الدم والنسب وفي الحركة الأمازيغية أيضا، أليس كذلك يا إينازم؟

يردّ إينازم مذعورا لهول ما سمع ولأول مرّة سقط لثامه من وجهه.. تكلّم عن نفسك أيها القبائلي.. أنتم لستم منّا ولا نحن منكم.. أنا عربي من جذور إفريقية.. أنا من ملّة محمد ولست من ملّة الكفر والطغيان.. من فوّضكم أن تتكلموا باسمنا.. نحن عربا.. وسنظلّ كذلك أحبّ من أحبّ وكره من كره.

يتكئ على كرسيه الذي يجلس عليه ثم ينهض ملوّحا بيديه من جاء بكم إلى هنا يا أبناء الروم والوندال.. يا أبناء فرنسا.. مليون ونصف مليون من الشهداء لم تكف وجئتم لتحاربونا في أرضنا وعرضنا، ستظلّ الجزائر عربية في لسانها وفي دمها.. ألا تكفي الملايين من البشر ممّن يحملون الدم العربي لتتهكّم بدمهم ونسبهم.. وكاد يضربه لولا تدخل " حيدر " مردّدا هذا الكلام على مسامع سعيد.

شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب

وستضاف العربية إلى الجزائر عاجلا أم آجلا.. ستكتب الجمهورية الجزائرية العربية كغيرها من البلدان العربية، كيف يعقل أن تتكلّم نخبة أقلّ من عشر السكان في الجزائر باسم الجزائر وتمسّ شعبه في أصله ونسبه.

أعجبني موقف "إينازم" هذه المرة.. وطنيّ وقومي حتى

النخاع، يعتزّ بعروبته وبأصله

سعيد التزم الصمت.. أخفى رأسه داخل معطفه ولم يحرّك ساكنا.. أصبح كالدودة التي لامسها قبس من نار. لا حركة ولا كلام..

يسكت الجميع.. تتعالى بعض أصوات الطيور، تظهر بعض الأشجار البعيدة هنا وهناك.. من بعيد تبصر بعض قطعان الغزلان متجهة نحو المرتفعات.. ولأول مرة رأيت بعض الإبل القادمة يسوقها صاحبها.. شعرت بالحياة هنا.

وفور تجاوزنا للمرتفع.. بدت لنا " جانت "عروس الصحراء بلا منازع.. تتربّع على مساحات شاسعة من الكثبان الرملية.. في وسطها بعض أشجار النخيل كالثلج الذي نثر على العروس ليلة زفافها.

قرأت في اللافتة التي تمثل بوابة المدينة من الجنوب "جانت ترحّب بضيوفها الكرام" بعد بضعة أمتار وجدنا لافتة كبيرة مكتوب عليها بالخط العريض "مهرجان الأغنية التارقية" مرحبا بزوّارنا الكرام كانت الشمس في طريقها إلى المغيب.. انتبهت إلى "إينازم" كان مشرئبَ العنق على أحرّ من الجمر.. أمّا حيدر فيغنّي ويرقص ويصفّق تارة واضعا ركبتيه

على جهاز القيادة.

في هذا الوقت كان الطيب يطلب التوقف لأداء صلاة المغرب.. لكن صوته لم يسمع تحت صياح حيدر وأهازيجه وتصفيقاته المتكرّرة وهو يقول على مرأى ومسمع الجميع:

العرس عرسك يا حيدرة: أرنا ماذا تفعل.. أكشف عن أسلحتك وأقواسك ونبلك ورمحك صوّب ولا تخطيء هدفك، برهن على فحولتك.. فاليوم يومك..

تتعالى الأصوات تحت أهازيج الأغاني، نساء ورجال وفرسان وإبل وأطفال تملأ ساحة تلك الرمال الذهبية.

تقف السيارة تحت نخلتين باسقتين في الطول، ينزل حيدر وأنزل معه قابضا بيده.. لا أريد أن أفوّت الفرصة.. فقد رغّبني في مغامراته التي لا تنتهي.. ولا أخفي عليكم.. فرائحة الحريم والبخور والعطر أثارت نشوة الغريزة داخلي.. تركت الطيب ومصطفى بجوار السيارة، أمّا "إينازم" فاندسّ في وسط التوارق التي تتراقص بالسيف والخناجر.. وغاب في هذا الجمع الغفير، أمّا سعيد فلم يظهر لي بعد أن أسدل الليل ستاره.. رافقت حيدر إلى أقرب مطعم فقد شعرت بالجوع.. هذا المطعم يا سادتي عبارة عن كوخ من الأعواد والقصب.. تباع فيه

الوجبات الخفيفة التي تؤكل على عجل، لكن الشيء الذي شدّ انتباهي كثرة الفتيات الماليات في هذا الكوخ.. وهنّ أشبه بحبّات الزيتون السوداء التي تلمع على ضوء القمر.

قال حيدر بصوت أجشّ: هل تريد هذه.. وامسك بواحدة من خصرها.. لم أسمع منها إلا تلك الأصوات المتداخلة التي بقت ترنّ في أذني كطلاسم لم أفكّ لغزها (قابا هيدا بنا).

يظهر أن حيدر متعوّد على هذه الحياة ولم يبال بأي أحد.

على اليمين شاهدت العشرات من الجنود مكوّنين طابورا طويلا على هؤلاء الماليات مقابل مائة دينار تدفع مسبّقا لصاحب المطعم الذي يتولّى بدوره تنظيم الزبائن.

قلت في نفسي.. التجارة حتى في الأجساد.. هذه الأجساد المحمومة التي تنتظر من يشتريها بثمن بخس، ثم قلت: أين الرقابة إذن.. من يضمن أن هؤلاء الفتيات ليس يحملن مرضا قاتلا كمرض الإيدز أو ما شابهه.

جرّني حيدر على غير عادته بعنف فاتبعته.. وسرنا بين الأشجار حتى وصلنا إلى تلك الكثبان الرملية التي تحيط بهذا الحشد الغفير من الناس، دخلنا بين الصفوف حتى وصلنا إلى الخطوط الأمامية للدائرة الطويلة العريضة ويا للمفاجأة.. وجدنا

الفنان "عثمان بالي" يشرف على هذا المهرجان بنفسه.. ويؤكّد رغبته في أن يلتزم الشاب مامي بوعده لإعادة تجربة مهرجان جانت في مدينة أخرى.

بقيت أبحث عن اسم مامي.. أين سمعته وسألت حيدر عنه فقال لي.. بأنه هو الآخر لا يعرفه لكن يقال أنّه من روّاد أغنية الراي في الغرب الجزائري.. وله شهرة عالمية واسعة.

نعم الآن تذكّرته.. سمعت بأغانيه في مدينة وهران.. واعتقد أنّه من تلاميذ الشاب خالد.

تعلو زغاريد النسوة وتعلو معها التصفيقات ويبدأ الرقص والطرب.. لا أنكر إعجابي بغناء عثمان بالي..صوته رخو فيه شيء من الحنين.. علت الكمنجات والأصوات الموسيقية وكان لتلك الجبال المحيطة صدى يسمع.. الرجال التوارق يرقصون الرقصات الجماعية بسيوفهم وخناجرهم وهم ملثمين.. أمّا النسوة فيرقصن بالملاءات السوداء.. وهنّ سافرات الوجوه متبرّجات في كثير من الأحيان.. تعجّبت لأمرهنّ.. الرجل متحجّب لا تظهر منه إلا العيون.. والمرأة عارية الوجه واليدين والفخذين.. عندما تتأمّل في حياة الطوارق لا تستطع أن تميّز بين الواحد والآخر لتشابه اللّباس والألوان والتقاليد. كما أنّ شخصية الفرد مرتبطة بشخصية الجماعة.. فهوية الفرد

جمعوية غير منفصلة.

تعجّبت من هؤلاء ولم انتبه إلا بعد أن جرّني حيدر إلي الصفوف الأمامية أكثر.. كانت رقصة جماعية يختلط فيها النساء بالرجال في حلقة دائرية يردّدن أهازيج جماعية فيها بعض القفز بالأرجل الأمامية.. وتلويح باليدين وفق طريقة منتظمة أفقية وعمودية.. كانت الأصابع تنساب بطريقة عفوية ليّنة ارتفاعا وانحدارا.. أطفأت الأضواء لأنها أكثر حرارة.. واكتفوا بضوء القمر.. شدّ حيدر على يدي وقال: أفضل وأحسن.. هنا تحلو الخطايا.. اقتربنا أكثر من اللّازم.. شدّتني رائحة العطر والمسك والبخور أثارت غرائزي وجنّ جنوني..

قلت في نفسي:

حيدر على حق.. لم أر أمتع وأفضل وأحلى من المرأة التارقية.. سمراء كحبّةالقمح.. شفتاها كحبّات توت نضجت على مهل.. خاصرتاها كظبي غزال ممتلئ.. طويلة الرقبة قوية البنية.. تشعر بجاذبية نحوها.. أشبه بحبّة الفلفل التي تجمع بين اللذّة والألم.

حيدر لم يستطع صبرا فهو كالثور الهائج إذ ثارت غرائزه.. اقتحم مجموعة النسوة وأمسك واحدة.. أظنّ أنه يعرفها..

اسمها " تامت " امرأة وافرة الظل طولا وعرضا.. ممتلئة.. سمراء جميلة يظهر اثر السّواك على فمها.. ينبع العطر من جسدها عبقا تروي الجائع والظمآن.

أمّا أنا فأصبت بالذعر من هول ما رأيت من جراة حيدر وقلّة صبره.. وخفت من تلك السيوف التي يلوّح بها الرجال خوفا من أن تقطع رؤوسنا فتراجعت إلى الوراء قليلا.. اتّبع حيدر الذي استطاع أن ينساب من بين تلك الصفوف رفقة هذه المرأة التي يناديها ب "تامت".

تبعته أقتفي أثره فوق تلك الرمال الذهبية على ضوء القمر.. حتى إذ لمحته اختفيت بحيث أراه ولا يراني.. أبطحها أرضا وانهال عليها كالصقر الذي نزل على فريسته فهو جائع إلى لحمها ظامئ إلى دمها.. جرّدها من ملابسها وانقضّ على هذا الفضاء الرحب الواسع من جسدها.. يتمتّع بتعاريج جسدها.. مرتفعاته ومنخفضات.. وديانه وأدغاله.. تارة ينتصب كعود حطب وتارة ينحني في شكل نصف دائري متأبّطا رمحه في ذهاب وإياب تارة ترتفع الأرجل وتتداخل في شكل خطوط متقاطعة يصعب تمييزها تحت ضوء القمر.. يصل إليّ الحفيف والأنين والعويل.

حيدر يا سادتي رجل قوي.. ثور همجي ساهمت في تكوينه

تضاريس المنطقة وقسوتها.. قوته تتجاوز قوة محرّك سيارته.أشعلها لهبا أحرقته واحرقها.. أبصرت الملاءة السوداء مكوّنة دائرة حولهما.

تارة يظهران لي كنبل في وتر وأحيانا ككرة عجين متلاحمة لا تستطيع تمييزها.. أحيانا أجده واقفا.. وأحيانا أخرى منبطحا.. مرة في الأعلى ومرة في الأسفل.

انتظرت ساعة.. ساعتان.. ثلاثة.. حتى فرّت من تحته مذعورة هاربة بجلدها.. لم تستطع تحمّل ضربات رمحه الحادّ..

وقف.. نظر يمنة ويسرة فأبصر فتاة مالية.. أسرع إليها وأمسكها من يدها ليكمل ما بقي من حرب فمعدّاته جاهزة وصواريخه على أحرّ من الجمر.. لم أستطع الانتظار هذه المرة وتحاشيت رؤيته متراجعا إلى مكان بعيد مكتفيا بكأس شاي ارشفه ببطيء.. أشعلت سيجارة امتصّها بعنف وبنهم.. ألتذّ بشرب شاي المنطقة، أشعلت سيجارة ثانية وثالثة تعجّبت من حال هذه السجائر.. هل تحرقني أم أحرقها.. تأمّلت القمر تفحصّت في سواد الليل وظلمته.. خطر لي بيت من الشعر لامرئ القيس:

وليل كمج البحر أرخى سدوله علــيّ بأنواع الهمـوم ليبتلي
فقلـت لـه لـمّـا تمــطّى بـصلبه وأردف إعــجازا ونـاء بكلكـل
ألا أيّها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

لأوّل مرة افهم معنى هذه الأبيات.. ولم تمرّ في حياتي ليلـة واحـد قـضيتها سـاهرا منفـردا في بـوادي الـصحراء.. ازدادت الظلمة سوادا.. لا اسمع إلا حفيف الأشجار التي اقترب منهـا لأول مـرة.. أشعر بتكـاثر النجــوم في مجرّتنـا.. خطـرت لـي خواطر كثيرة متباينة.. أصغيت أكثر لتلك الأصوات المتداخلة، ضربات الدفّ بين الحين والآخر.. صـوت الزرازيـر والـضفادع وأصوات أخرى لم أحدّدها.. عواء الذئاب يصلني متقّطعـا مـن بين تلك الجبال.. وقفت ثـم جلـست.. انتـابني خـوف وفـزع ورهبة.. من هذا المدبّر الـصانع الـذي خلـق كـلّ شـيء بميـزان الليل والنهار.. الشمس والقمر.. كـلّ في فلـك يـسبحون.. لأول مرة شعرت باتّساع المساحة في الجزائر طـولا وعرضـا وتعجّبـت من شحّ الدولة وعدم بيعها للأراضي وإصرارها علـى الـشقوق في عمارات شاهقة الارتفاع.

طـال انتظـاري لحيـدر وشـعرت بـالخوف.. نهـضت واقفـا وتابعت المسير متّجها نحو السيارة.

أهملت الاتجاه.. تهت بين دروب الصحراء.. أبصرت عن بعد بعض الأضواء الخافتة.. قصدتها فوجدتها تلك الأكواخ التي تعجّ بالفتيات الماليات والجنود الشباب.. تراجعت.. اختلطت عليّ الطرق.. ثم تذكّرت.. تذكرت موقف السيارة تحت النخلتين الباسقتين في الطول.

صعدت إلا مرتفع.. ويا فرحتاه.. شاهدت النخلتين عن بعد هما.. هما قصدتهما على عجل.. وجدت السيارة ووجدت الطيب متوسّدا حقيبته ويغصّ في نوم عميق بجواره مصطفى.. اقتربت منه أكثر، تأملته.. فم مفتوح. رأس مندس في الرمل أكثر.. قميصه ملتصق بجسده قدم عارية والأخرى ما تزال في حذائها. نزعت عنه الحذاء برفق.. لم ينتبه غاص في نوم عميق.. أحيانا يهذي يتكلّم كلاما غير مفهوم.. العرق بتصّبب على كامل جسده كأنه في سباق..تشعر بخفقان قلبه وسرعة تنفّسه من خلال الشهيق والزفير.. أحيانا يهدأ لا تشعر بحركته.. حاولت أن أوقظه.. شعرت انه في حلم مزعج.. تراجعت عن هذه الفكرة.. شدّ انتباهي ذلك الخنجر الذي يتدلّى من سترته.. انحنيت أتأمله فوجدته "خنجر إينازم" ربما أهداه له كذكرى الغريب في الأمر كون مصطفى ماسكا بمقبض الخنجر حتى في نومه كأنه يستعد لحدث ما.

شعرت بالقلق.. لأول مرة اكتشف بأن الليل طويل حاولت أن أنام.. ذهبت إلى مكان بجوار مصطفى.. أحسست بنعومة الرمل وبرودته.. غصت في الرمل أكثر.. وجدت حبيبات الرمل وصلت إلى فمي ولساني.. انقلبت على ظهري ثانية.. تأملت النجوم.. ما أكثرها.. بين الحين والحين يمرّ قبس من نار وفي أحيان كثيرة تتقاطع هذه الومضات النارية.. حاولت تفسير الأمر ولم أجد له حلاّ.. أتذكر قول جدتي في الصغر حين قالت : إنها شياطين وتذكّرت قول أستاذنا في المدرسة حين قال : إنّها أجرام سماوية طبيعية.. وهناك من قال : إنها نيازك.. لكني استقرّيت على الرأي الذي يقول إنها أقمار صناعية تجسسّية أو أقمار خاصة بالاتصالات السلكية واللاسلكية أو بإشارات الرادار التي تدل الطائرة على الاتجاه الصحيح.

خطر ببالي "عصر الانترنيت" عصر الاتصال السريع هذه الأيام وسمعت الكثير من المحاضرات التي تتكلم عن العولمة.. وأن العالم أصبح قرية صغيرة تستطيع التعرف عليها بسهولة..كما أن الدول العظمى وما تملكه من معدات تتيح لك معرفة كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم الفسيح الطويل.. تصوّر باطن الأرض وما فوقه.. تعرف حتى حركة النمل في ذهابها

وإيابها ونومها وحركتها.. شعرت بنوع من الخجل وقلت في نفسي: إن مغامرات حيدرة مع المرأة التارقية أو المالية فوق تلك الرمال الذهبية تصبح على مرأى ومسمع هذا العالم.. وهذا ما تفسره تلك القنوات الفضائية الخاصة بالجنس والتي تقدم لك أكثر من طريقة في ممارسة الهوى.

أحسست بحركة الطيب.. تثاءب ثم نهض.. التفت إليّ.. وجدني صاحيا قال: هل أذّن العشاء.. قلت: نعم مرّ عليه وقت طويل الطيب الملتزم بصلاته يظهر أن النوم غلبه هذه المرة.. نهض مسرعا.. لم يكتف بالتيمم وقال يسقط التيمم في وجود الماء.. أسرع إلى إناء ماء واختفى وراء السيارة.. توضأ. سألني عن القبلة قلت: حيثما ولّيتم فثم وجه الله.. لم يجادل في الأمر كعادته.. سألني عن الصلاة معه.. قلت له: صلّينا في الجامع رفقة حيدر أظنّ أن صلاة الجماعة أفضل بكثير من الصلاة المفردة.

كذبت.. لأول مرة لأني لم أجد ما أقوله للطيب في هذا الغياب الطويل وحتى أتجنب الصلاة معه على مضض وبدون وضوء.

مّرت دقائق معدودة لا اعلم مداها، سمعت صوتا من بعيد.. بدأ يقترب هذا الصوت رويدا رويدا.. وقفت، إنه حيدر

يا للمفاجأة صوته الأجشّ الحاد لا يفارقه.

مشيت لأنبّهه على تخفيض صوته.. لم يكترث.. قال بصوت مرتفع: أيها الجبان فررت من المعركة وتركت رفيقك وصديق دربك وحيدا.. أكملت الحرب بانتصار ساحق هذه المرة وبوسائلي القتالية وحدها منفردا.

قمت بحربين متتاليتين على تلك الرمال الذهبية وأشار بيده.. كان يعتقد أنني لم أره.. ثم يقول: خرجت منها منتصرا.. ضربت بسيفي ورمحي ونبلي كالعادة.. جرّبت كل أسلحتي على الهواء الطلق وتأكّدت من صلابتها وقوتها.

كنت في البداية أضحك من كلامه عن مغامراته ولا أصدّق ما يقول.. لكنني تأكدت بعد ذلك، رأيت بعينيّ هاتين.. اقترب حيدر ملوّحا بيديه.. وجدته رفقة رجل غريب لا أعرفه يحمل بعض الأشياء.. لم أتبيّن حقيقتها، كنت على وشك أن أقول كلاما لكنني التزمت الصمت.

الطيب بعد انتهائه من الصلاة جلس واعتدل ينتظر القادمين إلينا.

السلام عليكم..يردّ الطيب وعليكم السلام، إنه حيدر ورفيقه يحمل قفّة فيها أكل وشاي وفاكهة وعلب سردين.

قال حيدر: اعرف أنّكم جياع فجئت لكم ببعض الأكل، صديقي احمد هو الذي جاء بها.

أقبل الطيب يأكل بنهم.. إنه جائع لم يذق طعم الخبز منذ يومين.

مصطفى يهذي، يرتجّ في نومه.. تصدر عنه كلمات متقطعة.. الجحيم.. سارة في النار.. لا في الجنة.. يا إلهي سارة في الجنة.. من أدخلها.

اقترب منه أحمد.. ظهر أنه يعرفه.. من جاء به إلى هنا، من غيّر حاله، ماذا أصابه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول احمد: مصطفى من كبار المفتشين في وزارة السياحة يشرف على إقليم الطاسيلي، من كبار الموظفين في الدولة وزوجته سارة تعمل مرشدة وخبيرة في السياحة.. عاهدناها رئيسة مصلحة فيما سبق وهي امرأة مؤمنة طاهرة وشريفة.. أعجب مصطفى بها وتزوجها.. وعلمنا أنهما يقيمان في الغرب الجزائري وبالضبط في مدينة "معسكر" حياتهما الزوجية مبنية على الحبّ والتفاهم والثقة.. من غيّر مصطفى على هذا الحال.. كان من المفروض أن يشرف بنفسه على هذا

المهرجان.. سبحان مغيّر الأحوال.

يزداد العرق سيلانا من مصطفى وهو نائم، مازال يهذي.. مصطفى يا سادتي في حلم مزعج.. يرى نفسه سابحا في السماء يمرّ على جهنّم.. يرى الكّفار والفاسقين والظالمين.. يذعر من هول ما يرى.. نار مشتعلة.. لا عين رأت ولا أذن سمعت.. ولا خطر على بال أحد.. يرى الكافرين في حالة ترتجّ لها النفوس.. قطّعت لهم ثياب من نار. يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود.

ولهم مقامع من حديد كل ما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوّقوا عذاب الحريق.

يمرّ على بعض الفسّاق يجد من بينهم "سالم" شهيقه وزفيره نارا مشتعلة.. رأسه يغلي كالقدر.. يخرج البخار من أذنيه.. جلده مشقّق كأرض احرقها الظمأ.. تنفسه يحرق من حوله.

مصطفى يعرف سالم وسبب عذابه فهو فاسق وزان خدعه في عرضه وشرفه.

سأل عن البقية فهم كثر.. عددهم لا يعدّ ولا يحصى ... ما سلككم في صقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا

اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين ....

مصطفى ذعر من هول ما رأى.. ثياب سوداء قاتمة تلتهب نارا.. رائحة نتنة.. تخرج من أفواههم لهب ونار ودخان فيغشى عليهم ثم يفيقون.. يمرّ على النار.. يجد أغلبها من النساء.. نساء معلقات من أثدائهنّ تنتظرن عذاب السعير.. جهنم غاصّة بالمنافقين والظالمين والفاسقين.. بحث عن سارة زوجته فلم يجدها.. تحمّل الحرارة في تلك النار ومرّ من بين تلك النساء المعلقات من أثدائهن لعله يجد سارة فلم يجدها من بينهنّ.

سأل عنها ولم يعثر على خبر.. مصطفى يحدّث نفسه: سارة ستدخل النار.. من أخرجها.. لا بدّ أن تعذّب وتنال جزاء أعمالها.. يا إلهي أين عدلك ورحمتك أنت الذي لا يظلم عنده أحد.. أنت الذي لا تترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصيتها.. أين سارة.. لا بدّ أن تنال عقابها.. يتقدم مصطفى.. يجد وادا عميقا عميقا يهوى الكافر فيه أربعين سنة قبل أن يبلغ قعره.. يتخلّله جبل من نار مدّة صعوده تتطلب سبعين سنة وكلّما حاول الكافر صعوده يهوى فيه من جديد.. وبقى حاله على هذه الصورة خالدا فيها أبدا.

مصطفى يا سادتي بحث ونقّب وفتّش وسأل لعله يعثر

على سارة.. سارة التي يريدها حطبا لجهنّم لم يجدها.. شعر بلهيب النار حارًا لم يستطع تحمله.. ففر بنفسه طالبا النجاة من هول ما رأى واتجه إلى أصحاب اليمين حيث الجنة تفوح منها رائحة العطر الزكية وقد انبهر من هول ما رأى.. يعجز اللسان عن الوصف حيث جنات من نخيل وأعناب وفاكهة.. أنهار من العسل وما تشتهي الأنفس.. جنات من تحتها الأنهار وفاكهة مماّ يتخيرون.. ولحم طريّ مماّ يشتهون وحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون.. وقد انبّهر مصطفى من الحور العين فهم كالبدر ليلة تمامه.. بل جمالهن يفوق التصور.. رائحتهنّ أقوى من المسك والعنبر.. بل أقوى من الطيب.. تدخل الأنف والحنجرة.كأنهن الياقوت أو المرجان.. أذهبن عقل مصطفى وعقله.. أخذ يهرول لاحقا بهنّ.. يا بشراه.. يا فرحتاه.. مرددًا.وحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاءا بما كانوا يعملون..

الفرحة اجتاحت مصطفى وبهره الإعجاب والحبّ بهنّ.. يريد الإمساك بإحداهنّ، يسمع منادي يناديه: يا مصطفى... الحق بي.. ينتبه.. يجد سارة زوجته تناديه.. يسأل: من أدخلك الجنة يا سارة؟ تقول العمل الصالح.. طاعة الله والإيمان به.. يتأمل سارة.. يجدها لؤلؤة تسرّ الناظرين، درّة

نفيسة لا يشبهها أحد.. رائحتها العطرة تصلك على بعد أميال، قمّة من الأناقة والجمال فاقت التصوّر.. يحاول الإمساك بها فتبتعد.. يجد حاجزا بينه وبينها.. يصرخ مصطفى بأعلى صوته..

كيف اللّحاق بك يا سارة؟ كيف أصل إليك؟

تردّ وهي تبتعد.. التوبة إلى الله فهو غفور رحيم.. وبقى مصطفى يردّد التوبة.. التوبة.. سمعت الجماعة المحيطة بمصطفى(حيدر وأحمد والطيب)هذا الصراخ.. التوبة التوبة التوبة.. سارعوا إليه.. حرّكوه يمنة ويسرة حتى أيقضوه.. نهض مذعورا ووجد نفسه واقفا.

وقع في خبل.. تداخلت عليه الصور واختلط الحابل بالنابل.. يلمس سواد الليل والكثبان الرملية المحيطة.. يرفع رأسه يجد النجوم والقمر.. ينصت يسمع بعض ضربات الدفّ ونباح الكلاب من هنا وهناك.. ينتبه أمامه يجد حيدر والطيب وواحدا لا يعرفه.. مازال ذهنه لم يصح من صوت سارة بل لم يفصل في أمره.. هل هو في اليقظة أو في المنام.. بقي واقفا مذهولا حتى لحق به حيدر ورشه ببعض الماء البارد.. هنا استفاق مصطفى..استيقظ من سباته العميق.. تقدّم حيث الجماعة وجلس.. وقدّم له بعض الطعام.. لكنه اكتفى بالفاكهة

والشاي.. سأله احمد: هل تعرفني يا مصطفى.. مصطفى لم يجب وبقي مذهولا يحدّق في وجهه بصمت.. في هذه اللحظة كان النقاش حادّا بين حيدر والطيب وأحيانا يتدخل احمد للردّ على هذا أو ذاك.. كان لحيدر"راديو" معلّق على جذع نخلة.. نظر احمد إلى ساعته.. كانت الثانية العاشرة والنصف ليلا موعد الأخبار الموجزة وهو مولع بالأخبار كعادته.. نظر إلى الأعلى فأبصر المذياع فذهب إليه مسرعا وفتحه.. وجدنا أغنية لـ"عثمان بالي" يظهر أنها مقتبسة من مهرجان جانت.. كانت على نهايتها.. ثم بدأت الأخبار.. تشرع الصحافية في سرد العناوين البارزة لهذا اليوم.. مهرجان جانت للأغنية التارقية ينطلق هذا اليوم.. الرئيس الجزائري يعلن عن تثبيت اللغة الأمازيغية كلغة وطنية وإقرارها في الدستور بدون الحاجة إلى استفتاء شعبي.

العروش مع رئيس الحكومة في تفاوض مستمرّ بشأن قضية الدرك والأمن العام في المنطقة.. الأخبار بالتفصيل.. ينزعج احمد لما سمع.

يغلق المذياع ويعود إلى مكانه..

مصطفى يا سادتي ما زال صاحيا نائما حائرا بين رؤيته في المنام ووضع سارة الآن..موجودا بجسده في وسط الجماعة لكن

عقله تائه في دروب بعيدة لا يعلم مداها إلاّ الله.. يتخيّل سارة في قميص النوم مع غريمه سالم يضحكان بكل قوة وعنف.. تخبره أن زوجها مصطفى سافر إلى أقصي الجنوب الجزائري ولا يعود إلاّ بعد شهرين أو ثلاثة.. إنهما يضحكان الآن.. يتعانقان.. إنه يفحش معها وتضحك.. يضع يده على خاصرتها ثم ينزل بها قليلا إلى كفلها الأيسر ولا تتحرك.. سيغريها الشيطان وتستسلم.. سينزل يده تحت الحجاب الحاجز.. وستشعر بذلك الدفء الشيطاني.. سيجرّدها من ثيابها.. يبني خيمته ويغرس وتده.. يمسكها ضفيرتها.. يركب ويشعر انه مسيطر على زمام الموقف.. يوجّهها يمينا أو شمالا شرقا أو غربا.. سيجعلها فرسا سهل الانقياد.

احمرّت عينا مصطفى.. شهيقه وزفيره ازداد.. نظرته أصبحت شعلة من نار.. لسانه متدل.. محدّق العينين ينظر إلى أعلى.. يتخيّل سريره في بيت الزوجية نارا مشتعلة.. قطعة من جهنّم..

يصرخ بأعلى صوته.. سارة تدخل النار.. سارة تدخل النار.. حرّكه الطيب قائلا: لا حول ولا قوة إلا بالله.. حيدر لا يتوانى في ضربه بالماء البارد على وجهه كالعادة فينهض مرتجا.. كعصفور ضربه النهر فحمله التيّار إلى الأعماق.. ظلّ

مصطفى شارد الذهن والانتقام يراوده.. يتبعه.. فهو طالب ثأر.والخنجر في جيب سترته يضع يده على المقبض ويعرف أن الحياة بخير ما دام المرء قادرا أن يأخذ حقّه بنفسه... تعود له أنفاسه ويعود الأمل إليه من جديد.. ينتبه لحاله.. ينظر إلي رفاقه.. يقول حيدر: مصطفى الآن بخير.. أحمد يطلب من حيدر وبقية الرفاق البقاء لليلة ثانية في "جانت" ولكن ليس في العراء هذه المرة.. بل يصحبهم إلى الفندق حيث الماء واللباس والحمام.. يأخذون قسطا من الراحة يجنّبهم متاعب السفر.. كما أن معرفته لمصطفى والصداقة القديمة التي بينهما تفرض عليه أن يساعده في هذه الشدّة ويدخله الحمّام ويغيّر له ملابسه.. يقدّم له بعض الخدمة كواجب من رجل لرجل.

حيدر لم يمانع وقد رغب في البقاء ليوم آخر.. فذخيرته لم تنفذ بعد ومعدّاته القتالية تشتغل على قدم وساق.. وهو يعرف حجم الجاليات السياحية التي جاءت من لندن وباريس وألمانيا لتقيم في هذا الفندق وتحضر مهرجان "جانت" العالمي.. حيدر ادّعى أمام الطبيب أنه بحاجة إلى صيانة سيارته وتغيير بعض قطع غيارها.. ولذا أصبح المبيت ليوم آخر لا مفرّ منه.. كما أن الطبيب تذكّر الجمعة وقال.. صلاة الجمعة واجبة والمسجد هنا أقرب.. كما أن السفر يوم الجمعة مكروه ولا مانع أن نبيت

غدا ونسافر بعد غد مباشرة حيث السبت أول أيام الأسبوع..
رحّب الجميع بهذا الاتفاق الجماعي كما فرح احمد وتهلّل
وانفتحت أسارير وجهه واتّضحت الفرحة والغبطة عليه.. إنه
مسرور بصديقه حيدر.. ومصطفى مسرور بمعرفته للطيب

تأملت أحمد عن بعد.. رجل طويل أشقر له حاجبان
متقاربان.. وجهه دائري، شاربان قويان عينان ناعستان،
صوت رخو يلبس بدلة جميلة تميل إلى اللون الرمادي أنيق في
مظهره وملبسه.. تبدو عليه علامات الوقار والاحترام.

سألت عن عمله قيل: مرشد سياحي يعمل رفقة السوّاح
على مستوى جبال الهقار والطاسيلي سمعت لكلامه فزادني
إعجابا وانبهارا.. هادئ متّزن.. إذا سألته أو طلبت رأيه
يجيبك بحكمة وبمنطق.. مرح فيه جانب من الكرم والسخاء
وهذا هو القاسم المشترك بينه وبين حيدر إذا سمعت لكلامه
ولونه يظهر لك أنه من أصول عربية.. فصيح اللسان قوي
الحجّة لكن قيل لي أنه من اصل شاوي يقيم بباتنة جبال
لأوراس الأشمّ ارض البطولة والتضحية ارض الشجعان من ينكر
دور " الشاوية " في محاربة الاستعمار الفرنسي ووطنيتهم
المخلصة لبلادهم الجزائر ولأمتهم العربية الإسلامية المجيدة.
أعجبني " احمد" يعتزّ بوطنيته وبانتمائه العربي.. سألته عن

الأمازيغية وهل هي لهجة أم لغة وهل نستطيع أن ندرّسها لأبنائنا في المدارس والجامعات؟

ضحك وقال لي بصريح العبارة «أنا امازيغي» رغم أنى أنكر هذه الكلمة ولا تعجبني فأنا جزائري عربي.. عربي بانتمائي.. الإنسان يقاس بانتمائه الحضاري ولو سألتك عن نسبك وأجدادك الأوائل فمعرفتك لا تتجاوز الجدّ الرابع أو الخامس وتتوقف وقد قال رسول اللّه "ص" كذب النسب ولو صدق.

وأنا لا أريد أن أطيل عليك لندخل في متاهات يصعب تحديدها هل نحن من العرب العاربة أو العرب المستعربة ولكن نقول نحن عرب.. عرب بجذورنا وانتمائنا، عرب بديننا، عرب برسولنا محمد "ص".

أما الأمازيغية فهي لهجة مركبة من اللهجة العامية والفصحى ومن بعض الألفاظ الفرنسية.

كان الفجر قد لاح في الأفق وظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود وقد اقبل علينا النسيم باردا هذا الوقت.. ولأوّل مرّة أسمع صياح ديك يتبعه صوت ديك آخر.. ثم تعالت الأصوات من كل صوب وحدب يظهر أن الناس هنا تنهض باكرا.

قال أحمد: ومن أدراك أن الناس تنام هنا في فصل الحرّ.

أدهشني كلامه لكن لم أسأله.. هاهو المؤذّن يؤذّن.. هاهي حركة الناس مسرعة إلى المسجد.. اكتفينا بالصلاة هنا على عجل فقد أنهكنا التعب.. ثم جرّنا احمد المرشد السياحي إلى الفندق أعطانا غرفا.. لكل واحد غرفة خاصة مجهزة بالمرشّة والحمام.. جاء لمصطفى بملابس جديدة وأمره أن يتحممّ حتى يتخلص من هذا التعب ويغير ملابسه القديمة.

حيدر لم يعلّق على شيء ولم ينبس بكلمة واحدة.. يظهر أنه منهك القوى ولمجرّد وصوله إلى الفندق رمى بنفسه على السرير بدون أن ينزع حتى حذاءه.

نمنا يا سادتي نوما عميقا لا يعلم مداه إلا الله.. استيقظت على دقّات الساعة الثانية عشر من فراشي.. دخلت الحمام.. لبست ملابسي على عجل فشعرت بالانتعاش.

ذهبت إلي غرفة مصطفى أيقظته ثم عرّجت على غرفة الطيب.. دقفت الباب فنهض واقفا إنه سريع الحركة.. ثم ذهبت إلى غرفة حيدر دققت الباب عدّة مرات متتالية ولم ينهض.. وضعت يدي على الناقوس كان يرنّ بصوت مرتفع ولم يسمع له أثر.. اقتحمت الباب.. فتحته.. وجدت حيدر نائما على بطنه مازال الحذاء في قدمه.. شبه ميّت.. حرّكته، قلبته لم ينهض.. رشّشته ببعض الماء فنهض متثائبا بطيء

الحركة أخبرته أن الساعة الثانية عشر.. هنا نهض مسرعا.. غيّر ملابسه.. دخل الحمام.. التقينا على طاولة المطعم بعد ذلك وكان الطيب ومصطفى ينتظران حتى دخل حيدر بعد لحظات.. قدّمت جميع صنوف الطعام والشراب.. كان المطعم يغص بجميع الجنسيات المختلفة أغلبهم من النساء، إنكليزيات وفرنسيات وألمانيات فيهم السود والبيض والحمر والسمر.

خرج الطيب وخرج معه مصطفى بعد أن أصبح على أحسن ممّا كان عليه في السابق وقد لعبت الملابس والحمام دورها فظهرت أناقته وجماله.

قصد الطيب ومصطفى المسجد الكبير بجانيت.. فصلاة الجمعة على كثب.

نظرت إلى القاعة وجدتها مملوءة بفتيات عاريات بارزات الصدور تترجرج أفخاذهن وأعجازهن في حركة متمايلة تجسّد المحارم بطريقة مفضوحة.. كانت ليلة قائضة من ليالي جوان تصرخ باللذّة والمتعة.. وقد ساهم هذا المناخ الحار في اكتفاء النسوة بقطعة شفافة وضعت على مستودع السرّ والكتمان حيث اللذّة والألم.. الخير والشرّ.

حيدر وقف وجلس ثم نادى على واحدة منهن.. إنها آية في الروعة والجمال سبحان من صوّرها فخلقها اسمها سوزان إنكليزية في الخامسة والعشرين من عمرها بيضاء ناصعة البياض وجنتاها تميلان إلى الحمرة.. لاحظت حمرة لسانها حين تضحك واكتناز شفتيها والأسرار الكامنة في قاع فمها.. حلوة تملك مغناطيسا خاصا.. شهية إلى حدّ الجنون.

جلست بجوار حيدر تحدّثت معه وضحكت.. حيدر جريء لا يبالي فحل يأخذ المبادرة عليم بمواطن الضعف في المرأة.. مسح براحة يده ظاهر عنقها قبّلها في منابع الإحساس، ومع كل لمسة.. مع كل قبلة أحسّ أن عضلة في جسدها ترتخي.. وضع يده بين الركبة والفخذ رفعها قليلا قليلا وصل إلى الحجاب الحاجز دغدغه بلطف مستعملا أنامله.. شعر بتلك الحرارة وذلك الدفء ينبض.. وضع يده على الصّرة حتى النهدين.. عرف أن فريسته سقطت وما عليه إلا أن يخرج معدّاته القتالية.. سيعلنها حربا ضروسا، فالضحية أصبحت مسلوبة الإرادة لا تتحرك إلا بمشيئته، رفع وسطها قليلا، وجد نفسه في بحر لجّي لا يعلم مداه إلا هو.

أطال النظر إلى فخذيها وثدييها، لثمهما بلسانه، أحسّ بدمها الحار ينبض.. تأوّهت، شعر بنيران الجحيم ورائحة

الدخان تصل أنفه ضرب طبوله وأعلن حالة الاستنفار القصوى.. حيدر سيخرج منتصرا لا يعرف الانهزام.. فهو الذي كوّنته الصحراء بتضاريسها القاسية.. جعلته نمرا مفترسا، حيوانا كاسرا، طيرا جارحا لا يقنع بالقليل يأكل ويبتلع ويمتص ويغوص.

انهال عليها ضربا بالسياط، فوج من التأوهات تلتقي وتفترق.. حيدر يا سادتي جلّاد بارع يضرب بالسوط وهي تقول له أقتلني أيها الفارس الهمام.

فقال لها بلطف.. هذه الليلة ليلة الصدق والمأساة. تأوّهت، صعد الدم الحار إلى وجنتيها ونهديها، ظهر ألم خفيف على وجهها، جذبها إليه بقوّة، تأوّهت آهات مزّقت القلب ولم يبال بها، وضعت ذراعيها حول عنقه تسترحمه، فقال لها.. إننا في حرب ضروس لا هوادة فيها.. أطفأت الأنوار وبقي الحفيف واللفيف، انقلبت الغرفة إلى قطعة من جهنم حمراء ملتهبة لم يخرج منها حيدرة إلا منتصرا. وقد قبّلته سوزان على مرأى الجميع وقالت له بصريح العبارة.. نعمة الفارس حيدرة.. الشجاع العربي الأصيل خلقت الصحراء منك بطلا لا يقهر، وفارسا لا يعثر له على غبار، وأصبحت تبكي من شدة السعادة وجسدها أحمر قاتم.. خرجت قطعة نار بعد وقوع

المأساة، وإصابة مرمى السهم.. حيث تقرع الطبول وتقام الأشرعة لتضرب بعمق ذلك السطح الناعم الأملس وتكون رحلة متاهة في عالم لجّي تنتهي بانتصار أحد الطرفين وكان الانتصار حليف حيدره.

حيدر عبد السلام رجل المهمّات الصعبة.. بطل الغرائز الجنونية.. بطل النار والدّمار.. بطل الحرب.. فلتقرع طبول الحرب فرحا بالشجاع الهمام "حيدرة"

كان اليوم يوم جمعة.. وكانت الجزائر في حرب استنزاف قصوى على جميع الأصعدة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

جفاف ضرب بقاع الأرض وأتى على الأخضر واليابس.. فوضى وصراعات حزبية وسياسية تنخر هيكل البلاد حتّى العباد.. مشرّدون.. اغتيالات واعتقالات.. فوضى سياسية عارمة ومظاهرات واحتجاجات.. زنادقة ولصوص وخونة ومرتزقة خرجوا من جحورهم مكشّرين على أنيابهم.

عمّت البطالة وسرّح العمال بالآلاف وأحرقت المؤسسات وأتلفت وسرقت.

صندوق النقد الدولي يفرض شروطه.. انفلتت زمام الأمور

من يد السلطة.. القتل أصبح جهارا نهارا وكثرت التجمّعات والمسيرات تحمل لا فتات مختلفة... أصبح الهمّ الأكبر للناس هي المسيرات الاحتجاجية.. لا عمل، لا سكن، لا مأوى، لا زواج، لا مستقبل... تبخّرت كل الآمال المنشودة في الحياة.. شعارات مختلفة.. هناك من يريد دولة إسلامية أساسها القرآن والسنّة، متوّعدة ومنذرة زاد عددها وأظنّ أنها الأكثر قوة في ذلك العهد.

القبائل يحتجّون ويطالبون بتكوين دولة مستقلة في حال عدم تطبيق شروطهم.. أحزاب مجهريه أخرى تستغلّ الفرصة للتأثير على أحد الطرفين السلطة أو المعارضة وفي الحقيقة لا تمثّل إلاّ نفسها.. همّها الوحيد السلطة والمال والمزيد من المكاسب.

أحزاب طفيلية أخرى متطفّلة على الإسلام والعروبة تريد اغتنام الفرصة في حال سقوط أحد الطرفين... هناك من يصرّح بتكوين دولة إسلامية.. وهناك من يلوّح بالمحافظة على الطابع الجمهوري للبلاد.. وهناك من يدعو إلى الحكم الشيوعي.. والأغلبية همّها الوحيد ابتزاز الأموال والعباد.

كان جوّا مكفهرّا تسوده الاختلافات والاضطرابات والتناقضات.. ولولا البترول والغاز وثروات البلاد القوية لمات

أحدنا جوعا... لقد غلب قانون الغاب على تلك الفترة.. القوي يأكل الضعيف.. خرجت الذئاب والثعالب والحمير والأفاعي والثعابين والعقارب من جحورها ملوّحة مندّدة.. سنوات حمراء عجاف خرجت الجزائر منها منهكة ومتعبة، حرب ضروس لا هوادة فيها قرعت فيها طبول الحرب من كل صوب وحدب.. ازدادت حرارة المناخ ذاك اليوم والشمس كادت أن تلمس الأرض.. حتى المروحيات والمكيّفات الهوائية لم تستطع أن تفعل شيئا.. مصطفى والطيب داخل المسجد الكبير في الصفوف الأمامية بالقرب من الإمام.. المسجد يغصّ بالمصلّين من جميع أنحاء الأرض، حرارة شديدة وصلت إلى درجة الاختناق.. مصطفى يذكر هذه المرّة ويسبّح فقد علّمه الطيب بعض الأوراد والمأثورات.. أصبح أحسن حالا ممّا كان عليه في السابق.. وجهه تهلّل.

الطيب ينظر يمنة ويسرة يبتهج بهذا الجمع الغفير من المصلّين ويقول لمصطفى: تفاءل خيرا تجد خيرا.. مصطفى رغم انه في أحسن حال إلاّ أن الخواطر المتناقضة المتباينة أهملت عقله وفقد زمام التحكّم... مازال صرير هذه الخواطر يضرب عقله وقلبه في العمق.. ومازالت تلك الكلمات تدقّ سمعه وبصره.. ترنّ في أذنيه بين الحين والآخر... حوريات الجنّة..

جهنم.. سالم في الجحيم.. سارة مع حوريات الجنّة.

الإمام يبدأ في الدرس.. كان يعتمد على إثارة إحساس المصّلين... يتكلم عن الجهاد والدعوة الإسلامية.. يستشهد بصور من حياة الصحابة الإجلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الخليفة الصدّيق والصحابة المبّشرين بالجنة.. ويقارنهم بالوضع الحالي... يرغّب في العصيان والتمرّد.. يلهب مشاعرهم يبكيهم.. يبيّن لهم أن الدنيا لا تساوي شيئا.. يرغّبهم في الشهادة والموت على كلمة لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

يتكلّم عن قادة المسلمين الأوائل.. علي بن أبي طالب.. خالد بن الوليد.. سيف الله المسلول.. صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين.

يزداد الحماس ويزداد الإمام ترغيبا وترهيبا في الحساب والعقاب.

عذاب القبر.. يرغّب في الجنة.. في الموت والشهادة.. الفوز بحوريات الجنة.. يزداد حماس المصلين ويزداد كرههم للأنظمة التي ابتعدت عن كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

مصطفى يا سادتي بين الجنة والنار.. بين ما يسمع في

المسجد.. وبين رؤيته في المنام ووضع زوجته سارة الآن وهو بعيد عنها كل البعد.

مصطفى ينظر الحياة لهيبا مشتعلا.. حرارة الشمس والحرّ الشديد.. لهيب مشتعل.

حماس المصلين وكلامهم عن النار والجحيم والجهاد لهيب.. الغيرة التي تشعل قلبه لهيب من نار.. وحتى وضع حيدرة مع النساء الآن لهيب ودمار... اختنق مصطفى.. شعر بالدوّار، لم يعرف الاتجاه الصحيح.. هل يلزم حيدر ويبقى معه أم يبقى مع الطيب أم الاثنان معا.

قال في نفسه.. ماذا لو اختلطت الجنّة والنار.. أين تجد نفسك يا مصطفى؟

ينتبه المصلون إلى الإمام يخطب.. بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد "ص" وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

إخواني اتركوا الدنيا واكدحوا للآخرة وارفضوا نساء الدنيا واشتروا الحور العين فإنها تدرك بأيسر الأثمان وتكن معكم مخلّدة في الجنان.

روي عن مالك بن دينار رضي الله عنه انه كان يوما ماشيا

في أزقّة البصرة فإذا هو بجارية من جواري الملوك راكبة ومعها الخدم، فلما رآها مالك نادى أيتها الجارية أيبيعك مولاك؟ فقالت كيف قلت يا شيخ؟ قال: أيبيعك مولاك؟ قالت: لو باعني أكان مثلك يشتريني قال: نعم وخيرا منك.. فضحكت وأمرت به أن يحمل إلى دارها فحمل ودخلت على مولاها فأخبرته بما كان فضحك وأمر أن يدخل عليه فأدخل فوقعت له الهيبة في قلب السيد، قال: ما حاجتك؟ فقال: بعني جاريتك؟ قال: أو تطيق تسديد ثمنها؟ قال: ثمنها عندي نواتان مسوّستان فضحكوا.. ولم كان ثمنها عندك هكذا؟ قال: لكثرة عيوبها.. قالوا: وما عيوبها.. قال: إن لم تتعطّر نتنت وإن لم تستكّ فسدت وإن لم تتمشّط وتدهن قملت وشعثت، وإذا عمّرت قليلا هرمت، ذات حيض وغائط وبول وأقذار وحزن وغمّ وأكدار ولعلّها لا تودّك إلا لنفسها ولا تحبّك إلا لتنعمها.. لا تفي بعهدك ولا تصدق في ودّك ولا يخلف عليها أحد بعدك إلا رأته مثلك وأنا آخذ بدون ما سألت في جاريتك من الثمن.. جارية خلقت من سلالة الكافور ومن المسك والجوهر والنور ولو مزج ريقها البحر لطاب ولو دعي بكلامها ميّت لأجاب ولو بدا معصمها للشمس لأظلمت دونه وكسفت ولو بدا في الظلماء لأنارت به وأشرقت ولو واجهت الأفاق

بحليّها لتعطّرت به وتزخرفت.. نشأت من بين رياض المسك والزعفران وقضبان الياقوت والمرجان وقصرت في خيام النعيم.. فقال: يا جارية أسمعت ما قال شيخنا هذا؟ قالت: نعم.. قال: أفصدق أم كذب.. قالت بل صدق وبرّ ونصح.. قال: فأنت إذن حرّة لوجه الله تعالى.. واعتق بقية العبيد وتصدّق بما له وضياعه.

اللهمّ يسّر علينا متابعتهم وأوصل إلينا فتوحاتهم وأدم لنا بركاتهم وألحقنا بهم واحشرنا في زمرتهم واهدنا هداهم وأسلكنا طريقهم.. اللهمّ آمين.

ردّ عليه من في المسجد.. آمين

كانت الأعناق مشرئبّة هناك من يبكي أو يدّعي البكاء يظهر أن الناس في شّوق إلى حوريات الجنة...

أمرهم بالصلاة وتسوية الصفوف.. لا تتركوا فرجه للشيطان.. يزداد الاكتظاظ أكثر.

يخرج الناس بعد صلاة الجمعة ويتجمهرون في الشارع الكبير، يحتشدون بالآلاف.. ويسيرون مردّدين.. الله اكبر.. لا إله إلاّ الله.. محمد رسول الله.. عليها نحيا.. وعليها نموت.. وفي سبيلها نجاهد.. وعليها نلقى الله.. لا إله إلاّ

الله... حرارة الشمس وكثافة الجمهور وحماس الناس لهيب مشتعل.

مصطفى يقول: كنت ماسكا بالطيب حينذاك وكنت أشعر أن طبول الحرب على الأبواب.. مصطفى يمشي ويحدّث نفسه.. نعم هؤلاء على حق.. حوريات الجنة أحسن وأفضل بل أجمل أروع.. رأيتهم، رأيتهم بنفسي هؤلاء يدعون إلى حكم الله.. إلى قانون الشريعة.. هذه الدولة ظالمة وكافرة.

ثمّ يتساءل إذا طبّقوا الشريعة هل يطبّقون العدل، هل يجلدون ويقطعون الأيادي ويرجمون... لا.. لا هذا مستحيل.. إذا طبّقوا هذه الأحكام سيجلدون الناس جميعا.. ويقطعوا كل الأيادي..

فالجميع قد زنا وسرق.. لا.. لا.. يقول مصطفى.. تراوده خواطر كثيرة.. يقول في نفسه نعم ندفع الزكاة ولا ندفع الضريبة أحسن.. لكن الجزائر ليست وحدها في العالم فهي مرتبطة بدول عظمى.. هذه الدول تتعامل بالفائدة.. والجزائر مرتبطة بصندوق النقد الدولي لها عهود ومواثيق فكيف يتصرّفون.

هؤلاء يريدون أن يدخلوا جميع الناس في الجنّة.. لكن سارة

ينبغي لها أن تدخل النار.. إنها خدعتني.. ثمّ إن الله سبحانه وتعالى خلق الجنّة وخلق النار.. خلق العاصي وخلق المطيع خلق الملائكة وخلق الشياطين.. سنّة الله في خلقه.. ماذا يقول هؤلاء؟!

يقولون لا ديموقراطية في الإسلام، وهل مسيراتهم هذه إلاّ من ثمار الديموقراطية.. خواطر كثيرة متباينة أدهشت مصطفى وجعلته يشعر بالصداع.. أمّا حيدر يا سادتي فقد بقي مع احمد لا يبالي بما يدور خارج الفندق.. وقد انتصر على سوزان وشعر بنفسه أنه صلاح الدين قاهر الصليبيين خاصّة أن سوزان اعترفت به واعتبرته بطلا بلا منازع.. قاهر الأعداء.. صنديدا قويّا كجلمود صخر لا يتأثر ولا تفتر له همّة حتى ينال بغيته.

أحمد أعجبته بطولة حيدر وأحبّ أن يكون مثله أو يتجاوزه وقد كان مخمورا.. كأسه بقي ثلثه.. وقف أحمد وهو مخمورا وقال.. أنا أقوى من حيدر.. أكثر منه شجاعة وبأسا.. دخل على النسوة الأعجميات.. ولا أنكر أنهنّ نساء مملوءات بالشهوة والجنس وهنّ يرقصن ويغنين ويصفقن.. دخل احمد بينهنّ وقد نجح في إثارة غرائزهن دفعة واحدة.. وتعريتهنّ الواحدة تلو الأخرى حتى سقطن عليه.. لم يستطع إطفاء الحريق.. لم يكن قادرا على اجتياح هذا اللهيب المشتعل.. لم

يستطع اقتحام لجّة هذا البحر العميق.. لم يقدر على التوغّل في كل مظلمة ويستكشف الأسرار.. أحمد لم يغص.. أشعل النار ولاذ بالفرار طالبا النجاة.. كانت الفوضى كأنها تنفجر من تحت أقدامهن.. لم تسمع من الأصوات إلا الأصوات الحلقية التي تعبر عن التأوّه والتألم.. ومن الحروف إلاّ الحروف المهموسة.

صدر حريق مهول هذه المرة.. ليس من امرأة واحدة وإنما من مجوعة من النساء.. أجسادهنّ محمومة قد احترقت وهي تنتظر من يطفئها.. من يوقف هذه الحرب الشرسة.. من يقدر على تلك الأفخاذ البيضاوية المفتوحة.. من يستطيع السباحة في أعماق البحار والمحيطات والأنهار.. من يسكت تلك التأوهات.. أحمد هرب.. أشعلها وهرب.. اعترف بانهزامه لأوّل وهلة.. حيدر يا سادتي رجل المهمات الصعبة كما نعرف سابقا.. تجرّد من لباسه وحمل سيفه ورمحه وكامل معدّاته ودخل الحرب.

دخلها دخول الشجعان.. نصب خيمته وبدأ في الكرّ والفرّ، يقبل ويدبر، يضرب يمينا وشمالا وكلّما يسمع تأوها يقول لبّيك وسعديك ويغرس رمحه حتى النهاية.. أطفأ الحريق واعترف أنه على وشك الهزيمة.. بقي رمزا للشجاعة والنصر.. صفقن

له النسوة.. أحمد رجع واعترف ببطولته.. شعر حيدر بالتعب دخل الحمام وغيّر ملابسه.. قال لأحمد: أنا جائع.. دخلوا إلى المطعم.. قدّم لهم ما لذّ وطاب.. لحما مشويا وفاكهة وعصيرا.. أكل ما فيه الكفاية.. كانت سوزان بجواره لا تريد أن تفارقه.. تضحك تارة وتبتسم أخرى.

فتح أحمد النافذة.. وصلهم هتافا قويا.. لم تصلهم من الكلمات إلاّ "عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد" التفت "حيدر" إلى سوزان وضع يده بين فخذيها قائلا: أنا أيضا عليها أحيا وعليها أموت.. ضحك الجميع بما فيهم سوزان.. أحمد غرق في الضحك وهو يضرب بكفّيه حتى دخل عليه الطيب ومصطفى.. هنا سكت واعتدل في جلوسه.. كان الوقت على ما أظنّ بين العصر والمغرب مازال الجوّ حارّا لولا المكيفات الهوائية.. طلب احمد من النادل بعض المشروبات الباردة وجلس الطيب واعتدل في جلوسه.. رأى الفتيات الأوروبيات وهنّ أشبهن بالعاريات.. أدار ظهره وجعل الجدار أمامه مردّدا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

كنت أتابع الطيب.. أرى حركاته وسكناته كيف استطاع أن يصمد أمام هذه الأجساد الجميلة العارية اللذيذة.. هذه الفاكهة الشهية.. هذه القطع البيضاء الناعمة التي تشبه حبّات

الليمون أو التفاح.

كنت أتعجب من الطيب وأتعجب من قوته ورباطة جأشه وثباته على محاربة نزواته وغرائزه الجنونية.. كيف يستطيع تحمّل رؤية فتاة تعجّ أنوثة وشهوة وإغراء.

كنت أتابعه لكنّي التمست التفاته المفاجئ بين الحين والحين.. كان يسترق النظر ويتظاهر بالتعاويذ أمامي.

لاحظت وجهه يعتصر ولمست ذلك الشعور الذي جعل أعضاءه وأطراف يديه ترتعد.. قلت له في نفسي.. هيّا اقرع طبول الحرب يا الطيب.. فخير الدفاع الهجوم.. انتقم من الصليبيين.

حيدر جريء.. لا يبالي قال للطيب: أنظر معي لهذه الإنكليزية وأن أكفيك شرّها وتلك الفرنسية والأخرى الألمانية والتي بجوارها الإسبانية.. انتقم من الصليبيين، والمغول والتتار.. حارب على عرضك وشرفك وشرف الأمّة العربية قاطبة.

هبّ الطيب خارجا من الفندق ولم أسمع منه إلاّ كلمة "معاذ الله" وبعض الكلام ضاع معظمه بسبب قهقهة حيدر وصوته المرتفع.

هنا دخل علينا رجل مسن في الخمسين من عمره تقريبا أو يفوق.. تبدو عليه علامات الوقار والاحترام..

سلّم على حيدر واحمد بعناق حار.. يبدو انه يعرفهم منذ زمن.. سألت عنه احمد فقال: يشتغل فلاّحا وله واحة من النخيل.. من أحسن ما رأيت في هذه المنطقة.. استثمرها منذ مدّة وحوّلها إلى جنّة.. متقاعد من الجيش الوطني الشعبي برتبة ضابط سامي.. تأمّلته مليا.. وجدته رجلا معتدلا بدينا وبطنه أمامه.. له شاربان عريضان.. ونظارة سوداء قاتمة. شعر رأسه قصير يختلط بين البياض والسواد.

قال بصوت مرتفع: يا حيدر كيف تمرّ على جانت ولا تمرّ على بيتي.. كيف لم تسأل عنّي هذا خطأ لا أغفره لك... تظاهر حيدر انه على وشك زيارته مستنجدا بأحمد.. اسأل أحمد!

ملتفتا إلى أحمد: أليس كذلك. ثم يواصل: يا عبّاس.. يا أخي.. والله العظيم وأنا صادق فيما أقول.. كنت على وشك المرور بك، فقد كنت انتظر غروب الشمس ولم استطع تحمّل حرارة الشمس القاتلة.. سكت عباس برهة ثم قال: لا يهمّ العشاء عندي اليوم.. لا تقل شيئا.. قد برمجت كل شيء أنت وأحمد ومرافقوك عشائكم عندي الليلة.

اعتدل في جلوسه ونزع النظّارة، نزع معها الهيبة والوقار.. وظهر رجلا مرحا يحبّ الضحك.. قرأت ذلك من عينيه..

نظر إلى الفندق.. تأمّل الفتيات الأجنبيات وهنّ من جنسيات مختلفة.. مسح عينيه بأنامل يده وقال: ماذا أرى هل أنا في اليقظة أم في المنام.. من أين أتيتم بكل هذا الخير..!!

قال احمد: جاليات أجنبية سياحية جاءت إلى هذا الفندق لحضور المهرجان.

يتأمّل برهة تلك الأفخاذ العارية البيضاء والنهود الناصعة البياض المنتفخة اللينة كعجينة في حاجة إلى من يمسكها ويأكلها.. ثم ضرب كتفي حيدر وقال له: لماذا تحرمونا من أكل هذا التفاح الشهي.. لماذا تحسدوننا من قطف هذا الليمون الزّكي.

ضحك أحمد وقال له: الليمون في مزرعتك والتفاح عندك أيضا واعرفه لذيذا وشهيا.

التفت عباس إلى حيدر وقال له: أريد تفاحا من نوع آخر ومن طينة أخرى.. من منبت آخر تفاحا من لحم ودم.. ضحك وضحك معه حيدر وأحمد هممنا بالخروج.. فتح احمد النافذة..

مازالت الشمس حارة تلفح الجباه وتحرق الأجساد.

غلق النافذة من جديد وعاد إلى مكانه.. أمر النادل أن يفتح التلفزة ويأتي بكأس شاي لعباس... القضية الفلسطينية تتصدّر الأحداث..

الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني من طرف شارون السفاح وأعوانه.. ياسر عرفات محاصر في قصره بعد أن قتل اغلب عناصر أمنه الخاص.. أمريكا لا تبالي.. مازالت مصرّة على أن المقاومة إرهاب ينبغي محاربته.. العالم العربي يلتزم الصمت.. المواقف الأوروبية تبقى محتشمة وضعيفة.. انتقلنا إلى بعض القنوات العربية الأخرى لعلّنا نلمس جديدا.. لم نجد إلاّ الجماهير الغاضبة والحشود تهتف ...واحد اثنين..الجيش العربي فين... حيدر يعلّق.. أين الجيوش العربية، أين تسلّحها، أين وزارات الدفاع المختلفة، أكلت نصف ميزانية الدول ولم يظهر منها شيئا.

عباس يردّ: نحن شاركنا وفعلنا الكثير.. شاركنا في حرب أكتوبر وفرضنا وجودنا رغم وسائلنا العسكرية المحدودة.. ضحّينا ولم نكن مثل هؤلاء.. أحمد لم يستطع السكوت.. ماذا فعلتم، الحرب التي شاركتم فيها تعتبر نكسة على العالم العربي والإسلامي وهي التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه الآن.

حيدر يتدخل: أنا لا افهم طبيعة العسكريين في العالم العربي..

بالله عليك قل لي.. هل رأيت ضابطا ساميا يتمتع بوزن خفيف وبجسم رياضي معتدل، ثم قهقه.. هم أشبه بالبراميل المملوءة لا حول لهم ولا قوة.

يحتدم النقاش يشعر عباس بالغضب.. يصرخ في وجه حيدر ماذا فعلت أنت.. قل لي ماذا فعلت؟

حيدر يردّ: فعلت الكثير.. أنا رجل حرب كما تعلم.. أسلحتي وسائل بدائية لا تتجاوز السيف والرمح والنشّاب ورغم ذلك فعلت بها الكثير.. انتقمت من أوروبا بكاملها وأخذت ثأري مضاعفا.. يضحك بملء فمه وهو يردّد.. انتقمت من الحرب الصليبية المعلنة ضدّنا.. أرجعت الصاع صاعين، انتقمت من بريطانيا وسدّدت لها الضربات المتتالية منفردا وخرجت منتصراً.. اعترفت بانتصاراتي مثلما اعترفت بفشلها..!! ثم أعلنت الحرب ضدّهم جميعا دفعة واحدة ولم املك الأسلحة التي كانت في حوزتكم عام 67 وخرجت منها منتصرا.. تركت المعركة لهيبا مشتعلا.. جحيما.. أليس كذلك يا أحمد؟

بقي عباس جاحظ العينين لم يفهم شيئا.. ماذا تقصد؟

يوضح احمد الأمر وهو يضحك، حرب حيدرة هو في هذه الأجساد الأوروبية التي تراها أمامك.. يضحك عباس ويضرب كفّا بكف وهو يقهقه، أعرفك رجلا صنديدا في هذا الميدان.. تفعل الكثير.

يصرخ احمد: ماذا فعلت "زير نساء" لا يكلّ من الطّراد.. حيدر: اعترف يا أحمد وإلاّ قلت لعباس، سأقول له كل شيء.. سأخبره عن انهزامك وجبنك في المعركة، سأخبره عن فرارك.

يقف أحمد ثم يجلس.. نعم فعلت الكثير اعترف أنك انتقمت من هؤلاء النسوة جميعا في وقت عجزت فيه أنا ولم أفعل شيئا.

يتباهى حيدر بقوته والانتصارات التي حقّقها.. نعم بدأت بسوزان المثلة الشرعية لبريطانيا أشبعتها ضربا بسيفي ورمحي ونبلي، اعتصرتها حولتها إلى قطع... إلى مواد أولية... إلى بقايا امرأة، إلى عجينة تصلح لصنع امرأة، إلى دخان إلى نار ولهيب.. واعترفت هي بقوّتي وجبروتي.. وأصرّت أن ترافقني في رحلتي هذه وهي تردّد.. اقتلني أيها الجبّار العنيد.. أيها

الفارس العربي الهمام.

نعم فعلت الكثير.. فعلت الشيء الذي يعجز عنه طارق بن زياد أو صلاح نفسه.. يشعر "أحمد" بأنه عجز واستسلم ولم يفعل مثلما فعل حيدر، اعترف بعدم قدرته وفراره.. يقرّ بأنه المسئول عن تلك الحرب وفراره منها منهزما.. وانّ الذي حمل الراية هو حيدر..جميع النسوة الذين هنّ في الفندق بما فيهم سوزان تعترفن بشهامته ورجولته.. وتقلن له: أنت رجل المستقبل.. أنت البطل المنتظر.. أحمد يضع رأسه بين ركبتيه.. لم يجد ما يجادل به.. هذا الموقف يزيد من تشنّج حيدرة ويغريه على المضي قدما ويقرّ أنه صانع المعجزات، ثأر لحال الأمة جميعا بما فيها فلسطين.

يزداد صوته ارتفاعا حين شعر بهزيمة احمد وينظر إلى عباس قائلا: دخلت المعركة كما تعلم بعدما فرّ احمد.. وبمجرّد دخولي في هذه الحرب والتحام النسوة بي شعرت أن ماردا في داخلي استيقظ كان نائما من سنين.. كان حضورهنّ حولي بألوان مختلفة وبلغات متباينة ساعد في إيقاظ رجولتي.. كنت مشحونا بالانفعالات المتطرّفة وشعرت بالشراهة والرغبة في القتال.. تأملت جميع التضاريس والكهوف والمغارات والوديان والجبال.. وجدتها صالحة للمعركة ومناسبة للاختباء

والتجّسس والضرب بالسيف والرمح والسوط وأحيانا بالنبل والنشّاب.

وجدت أن الرمح أنسب في هذه المعركة لأنه أكثر غوصا في تلك البحار والمحيطات والأنهار.. شعرت بلذّة أكثر للقتال وبرغبة قوية في هذه المعركة.. استعنت بشفاهي وأسناني وأرجلي وأطراف يدي في هذه الحرب الساخنة.. رسمت بفحولتي حدود الوطن العربي الكبير على تلك المساحة الشاسعة من الأجساد المحمومة.. ضممت لهم امرأة إسبانية.. فالأندلس جزء لا يتجزأ من عالمنا المفقود.. قاومت.. كنت اصطدم بالحجارة والصخور.. بالمرتفعات والمنخفضان وكثرة التعاريج.. قاومت عطرهنّ وارتباكهن كنت أرسم بفحولتي حدود مساحتهن الدولة تلوى الأخرى.. من فرنسا إلى ألمانيا إلى إسبانيا منتهيا بإنكلترا.

احتضنت وزرعت وقطفت.. وضعت إمضائي حتى يبقى إلى الأبد.. نطق عباس هذه المرّة: ماذا تعني بالإمضاء يا حيدر؟! حيدر يجيب على التوّ بكثرة الألغاز والرموز هذه المرة.. الإمضاء هو الولاء المطلق لنا هو التبعية التي ينبغي أن تبقى، هو البصمة التي لا ينبغي أن تزول.. حيدر يا سادتي.. كان يتكلم بحماس والعرق يتساءل من جبينه كأنه قائد في معركة..

يلوّح بيديه ورجليه كأنه في حرب حقيقية.. ثم التفت إلى عباس.

قل لي بالله عليك: ماذا فعل العرب بالأندلس، إقامتهم هناك تجاوزت القرون من الزمن ولم أجد منهم من تعرب أو نطق بالعربية أو حتى أعلن ولاءه للعرب لسبب واحد.. لأنهم لم يتركوا إمضاءاتهم.

أنا تركت إمضائي فيهن جميعا.. أذهب إلى الإسبانية وتأكد بنفسك.. تجدها لا تتكلم إلاّ بحيدرة في يقظتها ومنامها.. في سرّها وجهرها.. أحمد يكّسر جدار الصمت ويقول: نعرف انك الهمام البطل ونعرف أنك رجل المهمات الصعبة.. ولكن ما سبب احتفاظك بسوزان البريطانية؟ يجيب حيدر على الفور وبصوت مرتفع: ألم تعلم أن بريطانيا هي السبب في بلاء العرب قديما وحديثا.. وهي السبب في القضية الفلسطينية، ألم تعرف أن وعد بلفور جاء بإيعاز من بريطانيا العظمى.. والوزير البريطاني هو الذي وعد اليهود بأرض الميعاد في فلسطين.

وهم الذين هجّروا اليهود من بقاع العالم وجمعوهم في الأرض المقدّسة أولى القبلتين وثالث الحرمين.

ها هو رئيس حكومتهم على نفس الولاء ونفس المساعدة لليهود.. بل إن إسرائيل تعتبر البنت المدلّلة لبريطانيا وربيبتها أمريكا، فهم واحد ودين واحد ولغة واحدة وجنس واحد.

هل عرفت سبب احتفاظي بسوزان البريطانية إنني اقتلها أكثر من مرّة في اليوم، أنتقم منها وآخذ بثأر أبي وأجدادي... أثأر للأمّة العربية، وأثأر لفلسطين.. رمحي يكفي في هذه المعركة، وسترون العجب العجاب.. يعلّق عبّاس على كلام حيدر.. ليست بريطانيا هي وحدها من هجّرت اليهود وجمعتهم في فلسطين، بل العرب أنفسهم ساهموا في هذه الهجرة الجماعية لليهود، عن غباء أو عن جهل أو عن متاجرة بالقضية الفلسطينية مع الدول العظمى مثل أمريكا وبريطانيا.

أحمد يخرج من صمته: مازالت الأنظمة العربية تتاجر بالقضية الفلسطينية من أجل حماية أنفسهم، لأنهم لا يأتمنون شعوبهم وهذا ما تفسّره تلك الهرولة والولاء المطلق إلى الدول الأمريكية والأوروبية وهم يطلبون السماح والعفو ويقدمون المساعدة لأمريكا وحلفائها.. عباس يردّ: نعم إنّ هذه الأنظمة مفروضة على شعوبها وإلاّ كيف نفسّر هذه الدول القطرية الصغيرة.. والإمارات المجهرية في العالم العربي لولا أوربا.

فهي التي توفّر لهم الحماية والأمن وتقدّم المساعدة مقابل الاحتفاظ بمصالحها..

كلام عباس فيه جانب من الصواب.. بل هو صحيح إلى آخر نقطة منه... حيدر يضحك وينظر إلى أحمد، أنا لا أفعل مثلهم، لا أهرول إليهم، هم يسعون إليّ، هاهي سوزان تصرّ على مرافقتي... فهذه الدول جميعا سقطت تحت رايتي... ثم يلتفت إلى سوزان التي كانت قريبة منه.. وانهال عليها مردّدا: ها أنا أذوب أخيرا في قبلة إنكليزية المذاق.. عربية الهوية.

سوزان تضحك ولا تفهم شيئا.

أحمد شعر بالغيرة وهو يرى "حيدر يعانق سوزان ويقبّلها على مرأى الجميع" ثم قال: ماذا تفعل يا حيدر مع هذه الدول إذا اعتبرنا سوزان البريطانية هي بريطانيا.

قال حيدر: المعاملة مع الدول اخذ وعطاء.. ولكن على أساس الاحترام وعدم التدخّل في شؤون الغير، أليس كذالك يا عباس.

يردّ عباس بإشارة من رأسه تدلّ على الموافقة والاقتناع برأيه.

أحمد يسأل: إذا كانت السياسة أخذ وعطاء ماذا أعطتك سوزان وماذا أخذت أنت.

يردّ حيدر: أخذت الكثير قطفت من تلك الأزهار والثمار... لثمت تلك الأثداء التي تشبه التفاح.. غصت في متاهات لا يشعر بها إلاّ أنا أشعلت الحرائق وأطفأتها... ذقت اللذّة الحقيقية... تمتّعت بتلك الأجساد التي تشبه قطع الجبن... أكلتها بنهم أكثر.. سبحت في تلك الفضاءات الواسعة، لعبت ومرحت في أدغالها وجبالها ومرتفعاتها... تهت في تلك الحدائق اليانعة وشبعت حتى النهم.. أليس هذا كثيرا يا أحمد؟! علّق عباس معارضا "حيدر" هذه المرّة: أنت يا حيدر مثل الأنظمة العربية تعطي ولا تأخذ شيئا.

فالدول الأوروبية بما فيهم أمريكا يشنّون حرب استنزاف على خيرات الدول العربية، يأخذون بترولها وغازها وحديدها وذهبها ومناجمها ويحتكرون سلعها ويفرضون عليها الإتاوات... قل لي ياحيدر: أين يوجد الرأس المال العربي. أين توجد الحسابات الخاصة للحكام العرب؟ ألم توجد إلاّ في بريطانيا وفرنسا وسو يسرا وأمريكا!! أنت مثلهم تماما تعطي فقط.. يصرخ حيدر: أنا لست مثلهم، لم أقدّم شيئا لسوزان ولا لغيرها.

يؤكّد عباس هذه المرّة بإصرار أكثر، أعطيت الكثير.. أعطيت جهدك بدون ثمن، وتركت بذرك بدون مقابل.. حرثت في أرض ليست لك.. ومشيت، تركت صلبك..

كنت اسمع لعباس.. أعجبني تحليله المنطقي وحضرني حديث لرسول الله "ص" حين قال: «اختاروا لنطفكم فإن العرق دسّاس» وحيدر يرمي بحارا من النطف بدون مقابل وهو لا يدري، أنهك نفسه واستنفذ قوته ورمى بذره في واد غير ذي زرع وهو لم يشعر بذلك.

حيدر سكت إ نهزم أخيرا.. لم يجد الجواب الشافي الذي يقحم به عباس.. سكت وسكتنا جميعا..

قال أحمد: نبحث عن أغنية... أنهكتنا السياسة... فعلها حكام العرب ونموت نحن كيدا وغيظا... ذهب إلى التلفزة وبدأ يبحث عن قناة فضائية أخرى... توقّف عند القناة اللبنانية فوجد أغنية.. تركها وعاد لمكانه.. جوليا بطرس تغني:

وين الملايين....وين الملايين

وين الشعب العربي وين وين وين

وين..وين...وين

تغنّي جوليا المقطع الأول وتردّد الفتاتان بقية المقطع.

كانت أغنية رائعة بصوت جميل جذاب ساهم في روعة هذه الأغنية جمال جوليا والفتاتان المرافقتان لها..

كان الصوت يخرج كأنه العسل.. ينساب كأنه العطر هذى هذه القاعة.

يظهر أن "عباس" الضابط المتقاعد قد غاص في هذه الأغنية فلا نبس ولا تحرّك، حتى انتهت الأغنية... سأل أحمد: قل لي الحقيقة هل أعجبتك الأغنية؟

قال: أقول الحقيقة لم تعجبني الأغنية ولا القضية... إنّما أعجبتني صاحبتها والفتاتان المصاحبتان لها... أقول الحقّ بمجرّد رؤيتي لهنّ، جردتهنّ من ثيابهن في خيالي وبقيت أتمتّع بهنّ، ضحك الجميع وانبهرت أنا من الردّ الذي يصدر عن رجل مسنّ في الخمسين من عمره وهو ضابط متقاعد...!!

يا لهول المفاجأة!! إذا كان كبار الضباط بهذه الطريقة، كيف يصبح حالنا وكيف يصير مستقبلنا، أين نصل على ضوء عناصر قيادية تشبه عباس.. سينتهي أمرنا بدون شكّ.

كانت الشمس توشك على المغيب صرخ عباس : هيّا.. الوقت مرّ والبيت بعيد... خرجنا دفعة واحدة... وجدت مصطفى واقفا أمام الفندق كشجرة صفصاف لا حركة ولا

سكون، جذبته من يده ومشينا.. ها هو الطيب بجلبابه الفضفاض يمشي مسرعا في اتجاه الفندق، أوقفناه أصحبناه معنا. كان الظلام قد أرخى سدوله.

مشينا وسط أزقّة ضيّقة ملتوية صنعت من الطّوب الأحمر تظلّلها أشجار النخيل الباسقة، لم أشعر بطول الطريق حتى وقفنا عند باب خشبيّ أخضر.

أخرج عباس مفتاحه من جيب سترته وفتح دفّة واحدة، دخلنا منها ثم أغلق الباب.. إنّها مزرعته بدون شكّ، أشجار كثيفة متلاحمة لم أميّز منها إلاّ النخيل لطوله.. مشينا بضع أمتار وتوقفنا عند بيت طويل عريض متاهة في الكبر...دخلنا حجرة الضيوف، وجلست أنا على أريكة من ريش النعام رطبة ليّنة، يغوص الجالس في داخلها... كانت حجرة جميلة ممتعة.. وزادت في جمالها تلك الأشياء التقليدية التي تزخر بها.

زرابي مطرّزة بأشكال تعبّر عن الطاسيلي وتضاريس تلك المنطقة، ريش النعام في كل زوايا البيت... كثرة السجّاد المعلّق على رفوف الجدران بعضه من جلد الغنم والماعز والإبل والبعض الآخر من جلد الثعابين والضبّ الذي يكثر في تلك المنطقة. رائحة البخور والعطر المنبعث من زوايا الغرفة زادها

متعة وجمالا.

في ذلك اليوم لم أشعر بشهية للحديث، كان ينتابني نوع من الضيق وحبّ العزلة.

اعتذرت من عباس في الخروج ولم يسمح لي إلاّ بعد إلحاح شديد وجدال.. تركتهم جميعا وخرجت لا اعلم ما دار من حديث بينهم.

وقفت عند أطراف المزرعة من جهة الجنوب.. كان الليل مظلما وشديد السواد، طافت نفسي بعيدا.. بعيدا.. لأوّل مرّة أشعر بالحزن والخوف من المجهول.. مرّت على مخيلتي خواطر كثيرة، لم احدّد زمنها ومكانها هناك أشياء عرفتها فيما بعد وهناك أسرار ما زالت أجهلها لحدّ اليوم.

أذكر جدّتي حين كانت تحدّثني عن الغول الذي يخرج ليلا لخطف الأطفال.. كما أتذكّر حكايات "لانجة بنت السلطان" وعرفت فيما بعد مصدر تلك الحكايات المستمّدة من ألف ليلة وليلة مع إضافات وتعديلات لا تخرج عن جوهر النصّ الأصلي.

مرّت خواطر كثيرة متداخلة أغلبها في الصغر حين كنت طفلا لا يتجاوز الخامسة من عمره أذكر ذلك اليوم من أيّام

الصيف حين أعطتني والدتي بعض الحلوى والفواكه في سلّة لأذهب بها إلى بيت جارنا "الحاج عثمان" كان الوقت ليلا.. مازلت أتصوّر ذلك الظلام الحالك في السواد والأصوات الكثيرة المتداخلة التي لا تختلف عن الأصوات التي اسمعها الآن.

في البداية رفضت وامتنعت بسبب الخوف من الغول ولكن بعد إصرار أمي وترغيبها وترهيبها ذهبت.. كنت أجري مسرعا نحو بيت جارنا ودخلت بدون استئذان.. مازالت الصورة في مخيّلتي لم تذهب بعد.. لقد انبهرت حين وجدت العمّ عثمان فوق امرأته وهي مجرّدة من لباسها.. رأيت ذلك العرق الذي ينساب من رقبتها.

رميت السلّة ورجعت مسرعا إلى بيتنا اخبر أمي بما وقع.. أمي لم تقل شيئا بل وضعت يدها على فمي ومنعتني من الكلام.

في ذلك الوقت لم استطع فكّ هذا اللغز.. بقي مبهما وغامضا.. حاولت أن اعرف، سألت أخي الأكبر فصفعني على وجهي بشدّة، بقيت مريضا مدّة أسبوع بعد ذلك.. منذ تلك الفترة التزمت الصمت، حتى عرفت السرّ بعد أن أصبحت شابًا وضحكت.. ضحكت من نفسي.

مرّت عليّ خواطر مختلفة بعضها مضحك والبعض الآخر يبكي.

أذكر أمّي حين ذهبت بي إلى حمّام للنساء، حاولت الامتناع... لا ادري في ذلك الوقت الشيء الذي كان يمنعني، لكن الذي اعرفه أنّها أدخلتني بالقوّة. تفاجأت من تلك النساء العاريات في بوهة الحمّام حيث الماء الساخن.. أذكر تلك الأثداء المنتفخة المتدلية التي تشبه براميل الماء والأخرى منتفخة متماسكة ككرة عاج والبعض الأخر أقلّ... كانت بأحجام مختفلة ومتباينة اذكرها جيدا.. انزعجت من هذا المنظر ولم اعرف السبب.

مازلت أذكر تلك الأفخاذ البيضاء والنهود العريضة لكن ما شدّ انتباهي وحيّرني في تلك اللحظة هي تلك المرأة المنبطحة على بطنها وهي عارية من كل شيء.. واقفة على رأسها امرأة أخرى تدلكها بالماء والصابون على ظهرها وخصريها وكفليها مرورا بفخذيها وهي تقول لها هيّئي نفسك أفسحي الطريق لزوجك حتى يتسّنى له أن يلعب ويمرح فوق هذين الجبلين المكابرين وهي تمسّ كفليها بسطح يدها.

مازلت أتخيّلها امرأة بدينة مملوءة.

قلت في نفسي هذا عيب، ولكن عمتي التي كانت تعاقبني على كل صغيرة وكبيرة تفعل مثلهم أيضا فهي شبه عارية.

حاولت الفرار من الحمّام ولكن زوجة عمي أمسكت بي وجرّدتني من لباسي وانهالت عليّ بالماء والصابون... شعرت بحريق في العينين صرخت وبكيت لكن كانت أقوى مني.. لم أسكت إلاّ وأنا مشدود بفوطة حمّام من الرأس حتى القدمين.

بقيت مغمورا مع تلك الخواطر الموغلة في القدم حتى هبت ريح عاتية فجأة. هنا استيقظت على صوت عباس يناديني فالعشاء جاهز على ما أظنّ.

رجعت مسرعا وجلست في مكاني الذي جلست فيه أول مرّة، اكتفيت بأكل التفاح وحبّة برتقال متحججا بمرض في المعدة. لم أشعر بشهيّة في الأكل.

بقيت أراقبهم. جميع الرفاق يأكلون بنهم، حيدر أتى على الأخضر واليابس.. أكل كل شيء ثم صاح.. "أكرموا الإناء" "أكرموا الإناء" اخذ قطعة خبز ومسح بها تلك الأطباق المختلفة تركها بيضاء ناصعة.

مصطفى مازال صامتا ولم يأكل إلاّ القليل بعد إلحاح من عباس.

بعد ذلك جاء الشاي مع صحن صغير من اللوز أكلت بنهم هذه المرّة وقلت في نفسي إنّ اللوز يساعد على إفراز الغدد المنوية ولهذا يقدّم للعرسان ليلة زفافهم.

مصطفى لأول مرّة شاهدته يتلذّذ بأكل اللوز... وضع الكثير من الحبّات في فمه دفعة واحدة.

تثاءب حيدر، شعر بالنعاس، الطيب بجواره ينام ويستيقظ، أحمد غاصّ في نوم عميق متوسّد يده اليمنى.

أمّا أنا فوقفت أريد منهم الخروج والذهاب إلى الفندق ولكنّ عباس أصرّ أن نبيت عنده الليلة.. فالوقت متأخر والطريق بعيدة ولا نأمن شر الكلاب المسعورة التي تخرج في هذا الوقت يقول عباس.. حتى أنا شعرت بالنّعاس فتمدّدت في مكاني.. جاءنا ببعض الأغطية لكنّه وجد الجميع نيام نمنا ولا ادري كيف نمنا، حتى شخير حيدرة لم اسمعه ذلك اليوم.

استيقظت على صوت عباس.. هيّا الماء ساخن...أذّن الفجر ونحن على موعد السفر.

نهض الطيب كعادته مسرعا، ثم أيقظ مصطفى... تبعتهم أنا بعد ذلك، يظهر أن عباس يذهب معنا هذه المرّة حسب ما سمعت من حيدر ليلة أمس.. بقي.. حيدر.. لم ينهض بعد.

نومه ثقيل حتى جاءه عباس وركله على قدميه، هنا نهض متثاقلا ونهض معه أحمد.

اغتسلنا على عجل.. صلّى من صلّى وبقينا نحن كالعادة... جاء عباس بإبريق شاي وآخر قهوة... شربت القهوة فأنا منذ مدّة لم اشربها.. شعرت بمتعتها الحقيقية... زال الصّداع عن رأسي.

خرجنا متعجّلين وخرج معنا عباس يحمل حقيبته وأوراقه، كان يريد الذهاب إلى مدينة ورقلة قصد اقتناء عتاد الفلاحة والري.

مصطفى لم ينبس بكلمة، وشعرت بحركته السريعة هذه المرّة، كان يتأهّب للرحيل على أحرّ من الجمر.

قصدنا نحن السيارة.. أمّا حيدر واحمد اتجها إلى الفندق، احمد لم ينسى أن يودّعنا ونحن في مفترق الطرق، مع السلامة.. مع السلامة... رحلة موفّقة.

احمد عمله هناك في الفندق، أمّا حيدر فيريد أن يأتي ببعض أمتعته، ويأتي بسوزان التي أصرّت أن ترافقه حتى مدينة "غرداية"

لمجرّد وصولنا إلى السيّارة المتوقفة تحت النخلتين

الباسقتين في الطول حتى وجدنا حيدر يقهقه وراءنا ومعه سوزان في ثياب النوم، لم يمهلها حتى تغيّر ملابسها.

ركبت سوزان بجوار السائق حيدر وركبنا نحن الأربعة في الخلف.. أخرج حيدر المفتاح ولطمه.. بدا صوت المحرّك يعلو... بقي ينتظر حتى ارتفعت درجة الحرارة، أوشكنا على الانطلاق حتى أبصرنا "أحمد" يجري مهرولا وهو يلوّح بمنديل ابيض.. كان وراءه رجل غريب لا نعرفه حتى وصل إلينا.. تكلّم مع حيدر.. أمره أن يحمل عبد الجليل في طريقه.. يظهر أن هذا الرجل من معارفه جاء إلى مهرجان جانت... كانت السيارة تتسع لأكبر من هذا العدد.

تنطلق السيارة تاركة غبارا كثيفا وراءها، ولم ينقطع هذا الغبار حتى دخلنا الطريق الرئيسي.

بدأ الخيط الأبيض يلوّح في الأفق. يظهر أن حيدر يسير بسرعة فائقة هذه المرّة.. زئير السيارة ارتفع، صدى المحرك تردّده بعض الجبال المحيطة. مازالت الرؤية لم تتّضح بعد، التفت يمنة ويسرة وجدت الناس نياما، سوزان تمدّدت تاركة شعرها النّاعم يحيط بها.

رأيت حيدر ينظر إلى المرآة... يتفقّدنا الواحد تلو الآخر.

تأكّد من نوم الجميع.. كنت أتابعه بحيث لم يشعر بمراقبتي له.. حن حن.. وضع يده على رأسه.. تحرّك من مكانه لطم سوزان من يدها بخفّة.. نهضت وارتجت.. يظهر أنها كانت نائمة.. يكلّمها وأحيانا يمسح على رقبتها يعود وينظر إلى المرآة ثانية يتأكّد من نومنا جميعا. يسرّب يده.. يضعها بين فخذي سوزان، يرتفع بها قليلا، ترتجّ سوزان ثم تعود إلى هدوئها.. تبدأ في التراخي.. يعلو الشهيق والزفير، يصعد الدم الحار إلى وجنتيها، تأوّهت.. بقي حيدر على سكونه، يعيد الكرّة من جديد يرفع يده إلى أعلى.. يحدث صوتا أشبه بالحروف الحلقية.. سوزان تتألم الآن.. تمطّت في كرسيها أكثر رافعة كفليها قليلا.

بزغت الشمس، رايته يخرج يده من بين فخذيها.. حيدر يا سادتي وحش يأكل بنهم مثلما يزني بنهم أكثر.. لا يملّ من مضاجعة النساء لا يميّز بين الكبيرة والصغيرة، البيضاء والسوداء، العربية والأعجمية "المهم أنثى" لا يملّ من الطَراد ليلا ونهارا سرّا وجهارا، يعيش مع الأنثى في حلّه وترحاله في يقظته ومنامه.

يقول لي.. الدنيا امرأة والحياة امرأة.. فكيف تحلو الحياة بدون امرأة.. يذكّرني بالرجال العظماء قائلا: "وراء كل عظيم

امرأة" يذكر هتلر وعشيقته ويذكر.. موسيليني.. وعشيقته التي قتلت معه.. يذكر كلينتون رئيس أكبر دولة في التاريخ وعشيقته.. مونيكاسلس... التي تناقلتها وسائل الإعلام.. يذكر لي هارون الرشيد مع زبيدة.. أعتقد أن حيدرة يعرفهم جميعا... بزغت الشمس إذن، ظهرت بأشعّتها الحارّة المحرقة كالعادة، كأننا في منتصف النهار.

هنا في الجنوب الكبير لا تعرف صباحا أو مساء، عصرا أو مغربا لا تميّز الوقت وتبقى العملية ثنائية... ليل بظلامه وشدّة سواده.. ونهار بأشعة شمسه المحرقة.. أصبحت الرؤية الآن واضحة.. وفيافي الصحراء تضرب في غياهب الماضي المجهول لا ادري من قال: "حين تتّسع الرؤية تضيق العبارة" لا أجد ما أقوله على ضوء هذه المساحة المترامية الأطراف.. مازالت القمم الجبلية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ.. الكثبان الرملية تلوح عن بعد مكوّنة سلاسل متّصلة تقطع الطريق أحيانا.. الحياة خالية من كلّ شيء إلاّ من بعض الطيور الرمادية القليلة التي تشبه لون الصحراء.

قيل لي إنّ هذا النوع من الطيور يتحمّل ظمأ الصحراء.. في هذا الوقت بالذّات نهض الجميع باستثناء مصطفى.. مصطفى يا سادتي شبه مخدّر حاله أشبه بأصحاب الكهف..

عيناه مفتوحتان ويتقلّب بين اليمين والشّمال، لكن عندما تقترب إليه أو تريد أن تكلّمه لا يجيبك إلاّ نادرا.. عقله شارد بين الموت والحياة.. بين الثار والانتقام.. وبين الانتظار.. نفسه تتجوّل بين الماضي والحاضر والمستقبل.. روحه صاعدة نازلة متأرجحة بين الدنيا والآخرة.

نظرته ثاقبة مركّزة في مكان واحد.. وروحه الآن مع الأزمنة الغابرة الموغلة في القدم.

يتذّكر الحياة الجاهلية حين كان وأد البنات.. يقول مع نفسه.. العرب على حقّ، وأد البنات يريح الإنسان من العار وشماتة الأعداء، بهذا التصرّف تقطع السنة الناس ويتجنّب القيل والقال.. ثم يرفض هذا التصرّف في قرارة نفسه.. متذكّرا الآية الكريمة ...وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت» فيقول لا..لا.

تعجبه نخوة العربي حين يقتل المرأة لأيّ سبب يتعلّق بالعرض والشرف..، يتذكّر ذلك العربي الذي يسمّى الحارث بن عوف حين اكتشف خيانة زوجته له، فأتى بفرسين جموحين وربطها من أرجلها بين هذين الحصانين وضربهما فانشطرت إلى نصفين. كلّ فرس ذهب بشطر وكان ذلك كله على مرأى ومسمع الجميع.

يشعر مصطفى بغبطة... تظهر عليه علامات الابتسامة.. يحضره مقطع للاكثم بن صيفي التميمي حين قال: «آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، وحسن الظنّ ورطة وسوء الظنّ عصمة...

يتوقف عند المقطعين الأخيرين ... حسن الظن ورطة.. يضرب رأسه بيده.. يشعر بتأنيب الضمير.. يحدّث نفسه.. لماذا أعطيت سارة تلك الثقة.. من جاء بي إلى هذا المكان البعيد وتركتها لمفردها تفعل ما تشاء مع الصعلوك سالم، إنه زير نساء لا يتوانى أن يفعل معها ما يريد.

إنّها الآن تخونني في عرضي وشرفي، من أدراني أنها بين أحضانه.. من يمنعها سيأكلها، يعصرها، سيجعلها عجينة في يده، سيترك بذرته في أحشائها وستقابلني حينذاك مهللة مكبّرة مستبشرة بمولود جديد.. يا إلهي ما أحمقني.. أنا الأبله المغفّل الذي لا ينظر إلى عواقب الأمور، أكثم التميمي على حقّ... سوء الظنّ عصمة....

يا إلهي، قتلت نفسي بثقتي العمياء، لم أتحذّر ولم أفكّر في عواقب الأمور.. لكن، لا..لا سأقتلها.. لن أتركها تنعم بخيانتها.

عباس يشعر بالضيق، أنفاسه تكاد تختنق، يخرج منديله من جيبه ويمسح العرق المنساب من جبهته وهو يقول: "أفّ، أفّ" من يوقف لهيب الشمس المشتعل.

يردّ الطيب وكلّه ثقة.. الله الواحد الأحد.. يردّ عباس بنوع من الازدراء والاحتقار.. الله بريء من كلّ هذا، لماذا تقحمون الله في كلّ كبيرة وصغيرة هي من صنع البشر ومن أعمالهم.

هل الله يحبّ الكفّار واليهود والنّصارى حتى نلمس تلك الأشجار والغابات الكثيفة والجنّات المختلفة والسهول الخضراء.

كان بإمكاننا أن نعمل مثلهم، نستخرج الماء من باطن الأرض ونقوم بحفر الآبار ونعمّر هذه الصحراء والمعدّات جاهزة وسريعة والحمد لله.

يؤكّد عباس: هذا هو الاستخلاف، استخلفنا الله في هذه الأرض لعمارتها وغرسها وزرعها وأرضنا غنية بمائها وبترولها.. ولو استطعنا إنشاء غابات كثيفة لكثرت السحب والأمطار بدون شكّ.

الطيب لا ينظر إلاّ من زاوية واحدة.. الدولة كافرة يجب محاربتها العلاج الشافي في القرآن وهو يلوّح بالمصحف الشريف

قائلا: كل من خرج عن هذا فهو كافر ومرتدّ وجب قتله.

يتدخّل عبد الجليل بكلام هادئ.. لأول مرّة نسمع صوته.. تلمس نوعا من الدفيء والحنين على مستوى أوتاره الصوتية، تشعر بحبّه والميل إليه.. دبلوماسي في تصرفاته وطريقة كلامه لا يزعج الآخرين.

قال: القرآن يا إخواني لو قرأتموه أو تصفّحتموه من أوله إلى أخره نجده مبني على دعامتين أساسيتين لا ثالث لهما هما العدل والرحمة.

أيّ مجتمع يبنى على العدل والمساواة بين أفراد مجتمعه فهو أقرب إلى الإسلام من غيره يا إخواني الإسلام ليس طقوسا نؤدّيها وإنّما هي المعاملة الحسنة.. ألم يقل الرسول ص إنما الدين المعاملة.. والمعاملة تفرض على المؤمن أن يتأدب بآداب الرسول ص ولا تخرج عنها.

يحتدم النقاش، سوزان تبتسم ولا تقول شيئا..، ربما لا تفهم ما يدور باستثناء معرفتها لبعض الألفاظ التي تتهجّاها بصعوبة.

حيدر يخرج عن صمته، يوجّه الكلام هذه المرّة إلى الطيب قائلا: ماذا تعني بالدولة الكافرة ومن تريد محاربته وقتاله.

يتدخل عباس: أنت يا حيدر.. وأنا.. وغيرنا في نظر الطيب كفّارا ومرتدّين.

الطيب يحتج.. الخارج عن الدين كافر، والذي لا يصلّي مرتدّ يجب محاربته.. وهذا ما كان قد فعله الخليفة الأوّل الصديق في حرب المرتدّين بعد موت الرسول ص.. يزداد الجدل والنقاش الحاد والتلويح باليد.

يتدخل عبد الجليل لفكّ هذا الجدال، ينتبه الجميع... الرجل كما عرفته عن قرب، هادئ ومتّزن.. يحلّل الأمور بعقل ورؤية أكثر.. ويظهر أن له علم بكتاب الله وسنه رسوله الكريم.

قال بصريح العبارة: أعداء الإسلام هم الكفار والمسيح واليهود وقد حذّرنا سبحانه وتعالى منهم، ولكن عيبنا أنّنا نحكّم عواطفنا وتسيّرنا نزوات عابرة وخلفيات ضيقة، ونظرة قصيرة لا تذهب بنا بعيدا.

أنا لا أفهم يا الطيب معنى الدولة الإسلامية في نظرك ومن تحارب.

إذا كنت تحارب الجندي والشرطي، والمسئول الفلاني ومن هم على شاكلة حيدر، فهؤلاء لا حول لهم ولا قوة، ولو

افترضنا أنك شكّلت دولتك الإسلامية مثلما تدّعي، فهل يتركك الغرب تعيش بسلام، هل تتركك أمريكا تأمن على حياتك وحياة شعبك.. وهل تستطيع الاعتماد على نفسك إذا ضربت عليك حصارا موجعا لسنوات، وهل تستطيع أن تحمي حدودك... وتردّ أسلحتها الفتّاكة وطائرات الأباتشي وصواريخها العابرة للقارات.

وهل تطبيقك للإسلام يقتصر على كتابة اللافتات والشّعارات، وفتح الكتاتيب التي تحفّظ القرآن الكريم.

الطيب يصرخ: أنتم الجبناء الذين تخافون الموت، نحن لا نبالي بها وعندنا الجنان المخلّدة وحور العين تنتظرنا في الآخرة، نحن لا نملك ما نندم عليه.

مصطفى ينتبه.. نعم حور العين، حور العين، هم حوريات الجنة وغرّة المسلم في أخرته أمّا سارة فهي جيفة ينبغي أن تموت.

يسترجع مصطفى رؤيته في المنام وصفات حوريات الجنة، كما يتذكّر خطبة الإمام يوم الجمعة.. يطوف بالجحيم الذي رآه في نومه، يزداد شهيقه وزفيره... ينتفخ بطنه ويخرج لسانه... عيناه محمرّتان كجمر مشتعل، تنتفخ حباله

الصوتية... يشير بأصابعه أحيانا كأنّه يكلّم أحدا.

عبد الجليل يحنّ لحاله ويشفق عليه.. يقول.. الرجل أصيب بالصرع.

سأله حيدر: مالصرع؟ يقول: مسّ من الجن ثم يواصل... هو في حاجة لرقية.. وسأرقيه الآن ويشفى بحول الله.

يرتفع ضجيج في المحرك، السيارة ترتفع وتنخفض، تعلو وتنزل.. ثم تخرج عن جادة الطريق... تشرئبّ الأعناق.

حيدر يقول: أنفشت العجلة الأمامية، لي غيرها.

تقف السيارة على بعد بضعة أمتار خارج الطريق في وسط كثبان رملية لا أول لها وآخر.

بالوعة، متاهة ليس لها حدود... ينزل الجميع.. عباس يولول.. يضرب بيديه ورجليه قائلا: متنا.. متنا.. يا إلهي سيقتلنا الظمأ... صحراء موحشة لا أوّل لها ولا آخر وصحراء قاتلة، لا أدري كيف تذكرت المثل العربي الذي يقول: «أظمأ من رمل» وقد خيّل لي أن البحر الأبيض وما يحمله من ماء سيغوص في هذه الكثبان الرملية وتمتصّه... كما تأكدت في هذه اللحظة بالذات أن فكرة عباس في إنشاء آبار وغابات تبقى عديمة الجدوى مع هذا الربع الخالي من الوطن والذي يضرب

أطنابه على مساحات رملية هائلة يصعب تحديدها.

فاجأني عبد الجليل يجرّ مصطفى إلى سدرة سميتها سدرة المنتهى.. أي نهاية أجلنا وقد أمسكه من ناصيته وهو يتمتم... اقتربت منه أكثر.. وجدته يقرأ المعوذتين وآية الكرسي.

الطيب جلس عند ظلّ السيارة والتزم الصمت.

سوزان نزلت تضحك.. فرحت بتلك الكثبان الرملية التي لا تعدّ بميزان... وبدأت تجري مسرعة نحو تلك الرمال وتتزحلق على سطحها الناعم غير مبالية بحرّها.. حيدر نزل يضحك أيضا كأن الأمر لا يعنيه.

غريب هذا الرجل، لا يفرّق بين الموت والحياة... تأمّل سيارته وجدها غاصّة في الرمل حتى الأذنين..

بحث عن عجلة سيارته فوجدها غارقة لا يظهر عليها أيّ أثر.. بدا يحثو التراب بأطراف يده حتى دخل برأسه وجذعه في مغارة.. لم يبق من جسمه إلاّ النصف.. هنا توقّف وقال: نحتاج إلى جلمود صخر نضع عليه الرّافعة حتى لا تغوص في الرمل.

خرج من تحت السيارة وضرب كفّه براحة يده وأزال بعض التراب من وجهه ورأسه وأطراف يده.

انتبه إلى برميل ماء معلّق بجانب السيارة... مسكه وأعطاه لعباس وأخذ هو زجاجة ماء كانت معه، شرب منها جرعة أو جرعتين ثم تساءل أين سوزان.. أين سوزان.. يسمع صوتها.. يبصرها فوق تلك الرمال بقميص النوم الأبيض الشّفاف كدرّة.. كجوهرة في أرض خراب... يجري إليها مسرعا سوزنا.. سوزان... سوزان يا سادتي جنّة في جحيم.. بستان في أرض قفراء قاحلة.. مصباح في زجاجة.. شابّة مرهفة ممتلئة تأكل بلا شبع.. لو أبصرتها في تلك الصحراء الظامئة لخيّل إليك أنها الفردوس بعينه خاصّة حين يضرب ذلك النسيم الخفيف فينفخ القميص الشفاف الأبيض.. يخيّل إليك فخذيها البيضاوان كشمعتان مضيئتان... ككوكب درّي يوقد لهبا يعكس أشعّة الشمس.. نهديها وحلمتيها كفاكهتين محرمتين شهيتين إلى حدّ الجنون.

تأمّلتها كأني أراها لأول مرّة.. شعر مهدّل أشقر يصل إلى خصريها.. عينان خضراوان يفيضان حنانا يشعّ منهما نورا.. جسمها بضّ ممتلئ لطيف التنسيق والتبويب... دقيقة القسمات.. نظرتها عسلية حالمة تشعر بالغرق داخلها.

فم رقيق الشفتين يميل إلى الحمرة.. الدّاكنة.. نظرت إليها من بعيد.. بدت لي حديقة غنّاء.. جنّة فيحاء.. عندما تجري

وتمرح ينكشف من خلال فتحة قميصها مستودع السرّ والكتمان.. آه... آه

حسدت حيدر، لا أخفي عليكم يا سادتي أني حسدّته رغم أني أحبّه، لم أستطع صبرا.. لأوّل مرّة شعرت بحلقي جاف وظمآن.. يكاد يقتلني الظمأ.. نيران الجحيم تأجّجت في داخلي دفعة واحدة.. كان لا بدّ من إطفاء النار مع تلك القطعة المثلّجة البيضاء "سوزان" أنا لا أبالغ إن قلت إنّها قطعة جبن باردة في صحراء الظمأ.

حاولت أن أقول لحيدر: هل تريد من يثأر معك... يشاركك في المعركة إن شعرت بالتعب.. ولكن خفت من رجل وحش مثل "حيدرة" سيقتلني في هذا الربع الخالي من الوطن، لا يقبل أن يشاركه أحد في امرأة.. أعرف طباعه.. التفت إلى الطبيب.. راقبته مازال يسترق النظرات من تحت السيارة، كان يتأمّل سوزان.. ينظر إليها بين الفينة والأخرى.. عرفت أن الطبيب مثلي يحترق نارا في جوفه.

تذكّرت عباس.. التفتّ إليه لأرى ما يفعله رجل في سنّ الخمسين.. ويا للمفاجأة!! وجدته تمثالا من حجر.. قبلته سوزان.. لا يبالي بحرّ الشمس ولهيبها.. كلّمته.. صرخت بأعلى صوتي.. لا حركة.. إحساسه وعقله وشعوره وبصره مع

سوزان.. شدّني الفضول إلى عبد الجليل كيف هو.. وجدّته منهمكا في قراءة الفاتحة والمعوذتين وهو ماسك بناصية مصطفى ويقول..أخرج.. أخرج.. لست ادري من يخرج.. وما الذي يعنيه بالخروج.. سوزان اختفت الآن.. يا إلهي أين ذهبت... أسرعت حتى وصلت إلى مرتفع رملي.. بقيت جالسا حتى أبصرت ضفائر شعرها... تظهر وتختفي وراء صخرة.. اقتربت أكثر.. لا أرى إلاّ شعر سوزان يظهر ويختفي في تدحرج مستمر بين الأعلى والأسفل.

لا أنكر عليكم يا سادتي أن غرائزي الجنونية هي التي دفعتني إلى معرفة المزيد عن سوزان وحيدر.

سمعت صوت سوزان تتأوّه آه.. آه.. آه.. بحروف المدّ الطويلة قلت فعلها ذلك الذئب المسعور.. فهو ظامئ إلى جسدها إلى لحمها ودمها سيأكلها ويطفئ ناره.

أصغيت السمع أكثر.. أصبحت المقاطع الصوتية سريعة الوقع متتالية.. تخلّصت من حركة المدّ الطويل.. أصبحت قصيرة محدّدة متتالية أه.أه.أه

عرفت أن هذا الذئب.أوشك على النهاية.. قضى وطره منها انتقم مثلما يقول.

عدت إلى رفاقي متظاهرا بالبحث عن أحجار تساعدنا في الخروج من هذه الورطة التي وقعنا فيها.

حيدر يعود بعد ذلك وهو يقهقه والعرق ينساب من رقبته قائلا: أنا ابن جلاَ وطلاّع الثنايا... متى أضع العمامة تعرفونني.

سوزان تبتسم وقد ازدادت جمالا بعد الحمرة التي سبغت كامل جسدها وهي تمسح براحتها على وجهها كأنّما لتزيل عنه ما لعق به من آثار الحرب التي أعلنها حيدر منذ قليل.

فور وصول حيدر إلى السيارة "أخذ الرافعة" واتّجه إلى الحفرة التي جهّزها تحت العجلة.. وبيديه القويتين المفتولتين استطاع أن يضع بعض الأحجار في تلك الهاوية.. ويثبّت الرافعة ويرفع سيارته في لمح البصر.. ينزع العجلة الأمامية ويضع مكانها أخرى جديدة.

قلت يا حيدرة.. الحرارة شديدة خانقة وأنا في حاجة إلى قهوة تزيل عنّي ألم الرأس.

قال الشاي أفضل ولكن أصررت على القهوة وساعدني عباس في ذلك.

قال لا بأس. نهض مسرعا وجمع بعض الأخشاب المخبّأة

في السيارة وأشعل النار وجاء بثلاثة أحجار متوسطة وضعها في شكل مثلث.. وضع عليها إبريقه النحاسي ووضع فيه قليلا من الماء.. وبقينا ننتظر حتى بدأ يغلي... هنا وضع فيه بعض مسحوق القهوة وطعّمه بالقرفة والشيح وبعض التوابل.. كانت القهوة رائعة لن أنساها ما حييت.. ولن أنسى رائحة القرفة والشيح حيث عبقت تلك الرائحة في انفي... شربت فنجانا على عجل.. لكن عباس الواقف بجواري شدَته تلك الرائحة ولم يفوّت الفرصة حيث أخذ الفنجان مني وحرمني المزيد.

هنا جاءت سوزان مسرعة.. وقفت على رأسي تريد شرب كأس من قهوة حيدر... رفعت رأسي وجدت "سوزان.. في حلّتها البيضاء، عبقت في انفي رائحة العطر والياسمين.

لا اخفي عليكم يا سادتي.. كانت كريحانة.. كحبّة ليمون.. كعبير أزهار البنفسج.. لا بل أكثر.. كانت كالنسمة الباردة التي تهبّ من الشمال محمّلة بالندى.. حاسّة الشمّ تطغى على باقي الحواس صارخة بالطيب والعطر.

أي جمال أنت فيه يا سوزان.. بمجّرد وقوفها بجواري اجتاحتني.. لم استطع الصمود كانت أطراف يدي ترتعد وتقاسيم وجهي تعتصر.

سوزان يا إخواني ليست بشرا إنها من طينة أخرى.. سالت عباس ذات مرّة عن سرّ جمالهنّ.. قال لي وهو يضحك.. إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الأرض والسماوات العلا في ستة أيّام.. بدا بخلق البشر.. أول ما بدا به هو أوربا خلقهم وصورهم في النهار حيث الشمس ساطعة والرؤية واضحة فكانوا على أحسن صورة.

وعندما وصل إلينا.. هنا في ولاية تامنراست.. كانت الشمس توشك على المغيب.. فأخذت صورنا شكل السمرة الداكنة التي تشبه حبّة القمح.. ودخل إلى إفريقيا مع الظلام الدامس فكانت صورهم كحبّات الزيتون الأسود مثلما تشاهد في مالي والنيجر.

رأي عباس يبدو منطقيا.. حاولت الاقتراب منها.. لكني لم أصمد أمام جمالها الفاتن.. حيدر لا يبالي.. يمسكها بيديه القويتين ويعجنها عجنا، بكل ما يملك من يدين مفتولتين.. كنت اشعر أن جسدها المرهف الوسيم لا يتحمّل خشونة حيدر، لكني سمعتها بأذنيّ هاتين ورأيتها بعينيّ تقول له: أقتلني أيها البطل العربي الهمام... تعجّبت لحالها.

سألت حيدر في أحد الأيام أيّهما أفضل.. المرأة التارقية التي تسمى "تامت" أم "سوزان"؟ قال لي بصريح العبارة:

تامت كحبّة تمر حارّة، حلوة المذاق.. تحرقني بألمها وحرارتها أشعر وأنا معها أنّي أحرث في أرضي وازرع في بستاني.

أمّا سوزان فهي قطعة جبن باردة شهيّة إلى حدّ الجنون، تأكل منها بنهم لكنها تلفحك ببردها.. بصقيعها.. تأخذ منك تلك الحرارة وذلك الدفء وتزرع فيك البرد وتترك ثلجها يطرد ما تبقّى من حرارة فيه.

تتركك تمثالا من ثلج، بارد الأطراف والقدمين.. تحتاج إلى من يدثّرك ويحميك ويدفّئك. قلت في نفسي: أنا بحاجة إلى ثلج سوزان وبردها.. دثّريني يا سيدة الثلج والبرد معا... كنت أشعر ساعتها برغبة ملحّة جامحة وبغريزة جنونية في أن أمسك يدها.. أداعب شعرها أستنشق عطر جسدها وألمس خصرها البضّ الدفين... لكن لا أستطيع... خوفي من حيدر والارتباك الذي وقعت فيه حال دون ذلك.

عباس فاجأنا بصوت مرتفع... لم يبق من القهوة إلاّ القليل أين مصطفى وعبد الجليل والطيب؟ وقفنا جميعا دفعة واحدة... ويا لهول ما رأينا!! نجد مصطفى عاري الجسد وعبد الجليل واقف على رأسه، ماسك بناصيته والطيب يحمل سوطا ويضرب بكل ما أوتي من قوّة وهو يقول:

اخرج.. أخرج.. اخرج أيها اللعين وعبد الجليل يقرا عليه القرآن مصطفى يتأوّه تارة ويصرخ أخرى.

عباس يفزع من هول ما رأى، وجرى نحوهما تبعته أنا ثم حيدر... مسكنا مصطفى من يديه.. كان كفرخ في العشّ لا حول له ولا قوة.. منهك.. لحمه احمر من فرط الجلد والضرب.. والدم يسيل منه حتى وصل تحت صرّته.. سألناهما عن السبب؟

قال عبد الجليل: مصطفى يسكنه عفريت من الجنّ وينبغي أن يخرج بالضرب المبرح.

التفتنا إلى الطيب فقال: هذا ما كان يفعله ابن تيمية والسلف الصالح من الأوّلين واللاّحقين!! انتابني شكّ في شخصية "عبد الجليل" تأمّلته قليلا.. رجل طويل القامة مهيب الطلعة، يتميّز بعينين جميلتين يشعّ منهما الذكاء عامرتان بالرقّة والخير.

أوّل ما يلفت انتباهك في شخصية "عبد الجليل" شارباه المقوّسان إلى أعلى بعناية، وكان يحمل في نفسه من القوة والثقة ما يبدو عليه في كل تصرفاته وحركاته.

دقّقت النظر فيه أكثر، وجدت شفته السفلى بارزة إلى الأمام

كبروز ذقنه أيضا، وهذه صفة أضفت عليه طابعا من الصرامة والترّفع. مشى... أحسست بحركته الشاذّة في تقديم كتفه أثناء السير.. انتابني شكّ يا إخواني في شخصية عبد الجليل.. كيف يفكّر هذا الرجل.. كيف يسمح لنفسه أن يضرب مصطفى هذا الضرب المبرح وكلّه أمل في الشفاء؟! كيف اقتنع الطيب وساعده حتى أوشك على قتل مصطفى لولا وصولنا في الوقت المناسب؟! راودتني أسئلة كثيرة لم أستطع فكّها.. ركبنا السيارة وبدا أزيز المحرك يرتفع... استطاع حيدر بفضل دهائه وحنكته في القيادة على اجتياز الكثبان الرملية.. وانطلقت الرحلة صوب "عين صالح" كانت الشمس تنزل رويدا رويدا حتى كادت أن تلمس الأرض.. اختبأت كل الحيوانات والطيور والحشرات.. وعلى الرغم من الإرهاق الذي أشعر به ووهج النيران المضرمة على مدّ هذه الكثبان الرملية المحيطة بنا من كل جهة بقيت صاحيا.. الصمت المطبق جعلني أشعر بالخوف.. مازال السراب يتلألأ كالماس.. لا تسمع في هذه اللحظة إلاّ أزيز المحرك تردّده الجبال المحيطة فيتباعد الصدى.

لمست الضجر في وجوه الراكبين معنا، أخذ النعاس منهم ما أخذ... كل واحد اتّكأ على كرسيه الذي يجلس عليه وغاص

في نوم عميق باستثناء مصطفى فهو أشبه بمجنون فقد عقله ووعيه... يهمس أحيانا وأحيانا يصرخ.. يقف فيضربه سقف السيارة فيعود إلى ما كان عليه.. تزداد حالته سوءا.. يتمتم.. يحرّك أصابع يده.. كل أطرافه ترتجّ وأحيانا يلتزم السكوت.

لو تأملته في تلك اللحظة وعلى تلك الصورة لخيّل إليك انه شبح من أشباح إفريقيا... شاحب الوجه نظرته قاتمة.. فم مفتوح مروّع... مظهره اشدّ بؤسا.. صدره الأشعث باديا من خلال قميصه الرمادي الملتصق بجلده... شعره ملبّد بفعل العرق والغبار.. فبدا في اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه مجنونا.. خاصة حين ينهض ويصرخ ويلوّح بيديه ورجليه ثم يميل برأسه على صدره كأنه مكسور العنق.

حيدر أخافه ذلك الخنجر الذي يشدّه مصطفى بمقبض يده.. فوضع له حبّة مسكّن مخدّرة في كأس ماء.. وفور شرب مصطفى لهذا الماء سقط على التوّ في نوم عميق فأراحه وأراحنا من تحرّكه وهذيانه وصراخه.

حيدر ملتزم الصمت.. ثابت في مكانه كأنه آلة أوتوماتيكية.. تأمّلت سوزان.. وجدتها تغصّ في نوم عميق... ولا أنكر إنها ازدادت جمالا وحسنا وهي نائمة... فبدت لي مورّدة الوجنتين.. رقيقة الملامح وذات شعر أشقر ذهبي

دققت النظر إليها مغتنما فرصة نوم الجميع... وجه صافي الحسن.. رقيق الملامح... رموش عينيها كغابة نخيل تسرّ الناظر والظمآن.

نزلت ببصري قليلا لمست استفاضة خاصرتها وبياض فخذيها تتخلّلهما حمرة شبيهة بشمعتين متّقدتين... فما أجملك يا سوزان وأجمل منك من خلقك على هذه الصورة البهيّة.

شعرت بوحشة.. تحوّلت أطيافي إلى أشباح.. تنبّهت حواسي كلّها.. شدّني الفضول إلى النظر يمينا يسارا... أرض قاحلة دكناء لا شجر فيها ولا عشب... سلاسل جبلية متآكلة.. قيل لي.. وجد هيكل لأحد الدينصورات هنا.. ووجد الكثير من الكائنات البحرية المتحجّرة.. لا أتذكّر من قال أن الصحراء كانت بحرا غنيا بسواحله وغاباته ووديانه وأشجاره وحيواناته وها هي تصبح في خبر كان... لم يبق منها إلاّ الكثبان الرملية الضاربة في الأعماق وآبار البترول من هنا وهناك.. سبحان مغيّر الأحوال.

شدّني صوت غريب.. أخرجت رأسي من النافذة.. لأوّل مرّة أشاهد مجموعة من الغربان متّجهة جنوبا في حلقة شبه دائرية يتبادلون أصواتا متداخلة.. لم استطع تمييزها.. يقال

إن للغراب خمسة عشر صوتا يستعملها مع بني جنسه.

شعرت بطول الوقت.. نظرت إلى ساعتي وجدتها السادسة مساءا.. ولكن لهيب الشمس الحار يجعلك تعتقد انك في منتصف النهار.. اقتربت من حيدر.. حاولت أن أكسر جدار الصمت الذي طال.. سألته عن المنطقة وعن تضاريسها فقال:

هذا إقليم صحراوي فسيح يمتدّ من جانت حتى عين صالح يحمل أسماء مختلفة حسب الأشكال والمناطق منها "لحمادة" والأحواض وهي منخفضات واسعة.. وفي بعض الأحيان عميقة جدا.. يحتلّ سطحها كثبان رملية ناعمة يطلق عليها اسم "العرق" مثلما تشاهد الآن.. ثم تبدأ السهول الصحراوية وهي مساحات خالية من مظاهر الحياة تغطِّيها الصخور الصلبة ويطلق عليها اسم "الرق".

توقف حيدر فجأة عن الكلام ونظر إلى رفاقه من الخلف قائلا: هل هؤلاء أحياء أم أموات.. ومدّ يده بطولها وامسك عباس من رجله.. هزّه هزات عنيفة هنا استفاق عباس من نومه متثاقلا.. مسح عينيه ببطء... نظر يمينا وشمالا قال لحيدر: أين نحن الآن.. يجيب حيدر: على مقربة من عين صالح وسنبيت هناك ونستريح من عناء السفر الطويل... لا تجزع لم يبق لنا إلاّ تلك المرتفعات الجبلية التي تظهر على شكل قباب

بلورية.. وفور تجاوزنا لتلك الجبال سنجد أنفسنا وجها لوجه مع "عين صالح" مدينة الرمال والتمور والنخيل.

عباس يعتدل في جلسته.. يظهر انه تذكّر شيئا مهمّا.. يأخذ حقيبته يبحث يخرج منها أوراقا عبارة عن مستندات ووثائق.. يتأمّلها مليّا... شدّني الفضول لمعرفة محتوى هذه المستندات التي يسافر عباس من أجلها... وجدت أرقاما يظهر أنها فواتير.. قرأت في أعلى تلك الوثيقة "صندوق الدعم الفلاحي" الجزائر... أعلى منها بالبند العريض "وزارة الفلاحة" نزلت بنظري أسفل وجدت جملا مصنّفة بالأرقام متسلسلة...

01 حوض مائي 450.000.00

02 مضخّة 40.000.00

03 مرشّة 30.000.00

04 السقي بالتقطير 60.000.00

05 أشجار نخيل وأشجار مثمرة ....

لم أركّز على المجموع جيّدا لكن حسب علمي قد يتجاوز المائة مليون سنتيم مساعدة من الصندوق.

حيدر يسأل عباس: مالك منهمكا في قراءة تلك الأوراق ماذا

يوجد فيها؟ يرفع عباس رأسه ضاحكا.. مائة مليون سنتيم دعم من صندوق الفلاحة.. قد كلمتك عن هذا... حيدر يرفع رأسه هذا كثير.. مبلغ مثل هذا مغر.. يا عباس باسم الصداقة التي بيننا ابحث لي عن مزرعة هناك بجوارك حتى أستفيد من هذه الأموال التي لم أحلم بها في حياتي.. عباس يقول...تمهل يا حيدره.. على رسلك.. الفلاح لا يقبض شيئا.. وإنما المقاول أو التاجر الذي يوفر لك هذه المعدات ومستلزمات الري والفلاحة... هو الذي يقبض هذا الثمن... حيدره يقول... لوبعتها في السوق تستطيع الحصول على المبلغ نقدا... عباس يضحك ويلعن الفلاحة وصندوقها.. يقول... منذ انشاء صندوق الفلاحة ونحن مع الأوراق والمستندات... تجد الفلاحين في طوابير طويلة يوميا... تركنا الحرث والغرس والزرع هذه السنة... هناك الكثير من المزارع ماتت أشجارها من الظمأ.. وهناك الكثير من الفلاحين توقفوا عن خدمة الأرض واستخرجوا سجلات تجاريه وتكفلوا بشراء هذا العتاد للفلاح.. لقد أغرتهم الدولة بهذه الأموال المرتفعة بينما الفلاح لا يأخذ منها شيئا إلا الاسم فقط. يقول عباس حتى العمال الذين يشتغلون عندي في المزرعة توقفوا عن العمل وأصبحت لهم سجلات تجارية تولوا هم بأنفسهم هذه العملية.. ويقال أن

أحدهم أصبح مليونيرا استطاع في فترة قصيرة أن يشترى أفخم سيارة على آخر طراز وقصر في الجزائر العاصمة.. حيدر يضحك ويتأسف... ثم يواصل نحن لم نسمع بهذه الأشياء.. أكلتنا الصحراء ابتلعتنا مع رمالها... يا جماعه عليكم يمين الله.. إني اشتغلت وسعيت وأنا شابّ لم أتجاوز الخامسة عشر من عمري... وها أنا الآن على مشارف الأربعين لم أستطع شراء منزل... بل لم استطع حتى الزواج بل اكتفيت بزواج المتعة مع نساء عابرات على الهواء الطلق.. وأحيانا في فندق يؤجّره أحد الأصدقاء.. ألم يكن هذا حلاّ بديلا يا عباس... هنا يتكلّم عبد الجليل.. يظهر أنه كان يسمعهم.. حلاّ مقبولا عند أصحاب المذهب الجعفري فهم لا ينكرونه... حيدر يؤكّد... الضرورة تبيح المحظورة.. ماذا يفعل رجلا مثلي وفي سنّي.. لا عمل، لا سكن.. لا مال، على الرغم من أن الدولة ترمي الأموال يمينا وشمالا.. بل الأموال تستنزف إلى أقصى حدّ ممكن.. هاهي فاتورة عباس تصل إلى مائة مليون سنتيم مساعدة... عباس يوضّح.. يا أخي حيدر أنا لا آخذ منها في الحقيقة إلاّ 10٪ أمّا البقية فيأخذه قطّاع الطرق أمثال المقاولين وأصحاب السّجلات التجارية ومدراء المؤسسات الفلاحية والبنكية.. اللعنة عليهم.. قتلوا الفلاحة والفلاح.. كنّا قانعين

بالشيء اليسير الذي في أيدينا وكانت الأرض تعطي الشيء الكثير.. لأن قناعة الواحد منّا أنه يأخذ بقدر ما يبذل.

أمّا الآن فقد تغيّر الحال.. هذه السياسة العقيمة فتحت الأبواب على مصراعيها للغشّ والتخريب والسرقة والرشاوى... أصبح جميع الناس تجارا وجميع الناس مقاولين.

هنا يتدخّل عبد الجليل قائلا: نحن في حاجة إلى التجّار والمقاولين،لكن المؤسف أن المقاول عندنا لا يملك إلاّ السجلّ التجاري فقط ويحصل على المشروع بطرق ملتوية ويبيعه بأثمان باهضة ليبيعه الطرف الثاني أيضا حتى يصل إلى الفئة الأقلّ... هذه الفئة التي تعيش بالكدح والعرق ولا تملك أيّ سجلّ لأيّ تجارة! أو مقاولة هي التي تقوم بالعمل الميداني ولا تأخذ إلاّ أجرا زهيدا لا يصل إلى 20٪ من تكلفة المشروع الذي منح به. وهذا هو السرّ في التكالب الذي نشهده اليوم في الانتخابات البلدية والتشريعية.. لأن العملية هي استنزاف للأموال العمومية وقد وصلت بهم إلى حدّ الغنى الفاحش.. يقول عبد الجليل.. تصوّروا شاب في مقتبل العمر لا يتجاوز السابعة عشر يملك المليارات يجيبه حيدر بصوت مرتفع: ألم تكن بلادنا بلاد المعجزات.. بلاد المستحيلات.. كل مستحيل ممكن في أرض المليون ونصف المليون شهيد.

ثم يواصل..تصوّروا صديقي "إينازم" وأعتقد أنكم تعرفونه... هو الذي نزل في مدينة "جانت" كان يشتغل في منطقة "حاسي الرمل" حيث الآبار البترولية في بداية عهده "كان يحرس أحد الآبار الموزّعة على كامل الصحراء.. اعتقدت أن أجره كان يتقاضاه من شركة سوناطراك ثمّ اتّضح بعد ذلك انه مؤجّر من طرف الخواص لهذه الشركة حتى أن مرتّبه الشهري لا يتجاوز المليون سنتيم.. ألم تكن هذه تجارة للرق من نوع آخر اشد فتكا بالانسان.. تجارة بالدماء البشرية في القرن العشرين.. أيّة حرّية هذه يا إخواني يموت فيها أحدنا جوعا والآخر تقتله التخمة بدون حقّ.

آبار البترول التي تشاهدونها على اتساع الصحراء لا يستفيد منها إلاّ البعض.. أمّا الأغلبية فلا حول ولا قوة لهم.

عباس يضحك بجسمه كله.. وخاصّة رجليه.. يمسح العرق المنساب على جبهته العريضة وهو يقول: اللعنة على هذه الأوراق واللعنة على وزارة الفلاحة التي أوصلتني إلى هذا الجحيم.

هنا ينهض الطيب على حركة عباس العنيفة ولم يسمع إلاّ المقطع الأخير فيردده وهو يقول نعم اللعنة على الدولة بكاملها.. هي التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه.. ووزارة الفلاحة

هي في الأول والأخير من صنعهم ومن سياستهم العقيمة التي تدور حول دائرة مفرغة.. حول الصفر وتبقى في الصفر.. ألم أقل لكم فيما سبق.. هذه سياسة الهروب إلى الأمام.. وربّما الشيء الذي تبحث عنه أمامها قد تركته وراءها، فتعود إلى درجة الصفر من جديد.

عبد الجليل يريد أن يثبت شيئا معيّنا فيقول: يا إخواني لا نغالط أنفسنا ولا نكذب على غيرنا، نحن في حاجة إلى إرساء دعائم دولة ثابتة لها أسسها وأنظمتها وقوانينها ومؤسساتها، مازلنا لحدّ اليوم في إطار التجربة، وفشل التجربة بعد ذلك على يد رئيس جديد.. حتىّ الرؤساء عندنا كلّ له قانونه وميثاقه ودستوره ويرمي اللّوم على من سبقوه.

هذا هو حالنا ومصدر بلاءنا.. هل نحن في حاجة إلى قانون.. القوانين والدساتير والتشريعات والمواد المعدّلة والمتمّمة ملأت الخزائن والرفوف والمكاتب وحتى البناءات المخصّصة لحفظ الأرشيف.

يا إخواني نحن في حاجة إلى رجل شريف صاحب مبادئ وثوابت.. يحترم نفسه مثلما يحترم غيره.

...كانت الشمس توشك على المغيب والليل بدأ ينزل

سدوله... أشعلت السيارات أضواءها.. بدأنا نسمع همسا وصياحا وهتافا هنا وهناك، دبّت الحياة في هذه الأرض القفراء... ازداد أزيز المحرك علوّا.. سألنا حيدر عن "عين صالح" فقال: بمجرّد تجاوزنا لهذا المرتفع سنجد أنفسنا وجها لوجه مع هذه المدينة العريقة "مدينة النخيل" مدينة الأولياء الصالحين.. فهي كما قيل تحوي سبع وسبعين وليّا صالحا.

تفقّدت مصطفى، منذ مدّة لم اشعر بحركته.. مازال غاصّا في نومه، يظهر أن المسكن قوى التأثير.. تأملته.. كان وجهه يثير في النفس مشاعر الأسى والألم.

نظرت إلى اليمين والشمال.. وجدت الليل أسدل ستاره.. انخفض صوت المحرك.. يا بشراه تجاوزنا المرتفع.. رفعت رأسي.. ها هي الأضواء تتلألأ.. تقدمنا قليلا وجدنا المآذن والقباب وقمم الجوامع وأسوارها.. أوّل ما شدّ انتباهي تلك الواحات الباسقة من النخيل تحيط بالمدينة من كل جهة.. الكثبان الرملية في خطوط عمودية وأفقية منتصبة أمام خطوط من سعف النخيل.

عرفنا فيما بعد أنّها حواجز وضعت خصّيصا لتمنع تسرّب الرمال إلى الداخل.

توقَفنا عند مدخل المدينة.. قيل لنا: المدينة في فرح.. لها "وعدة" مع أحد أوليائها الصالحين.

على ضفاف المدينة جنوبا ستجدون القبّة الخضراء مزار "مولاي لحسن".. واصلنا المسير.. دخلنا المدينة.. قلت في نفسي: السلام عليكم يا من تسكنون هذه المدينة.. السلام على حكّامكم وأوليائكم والصالحين منكم.. نحن عابري سبيل... افتحوا لنا مكانا بين صلاّحكم فساقكم بين أنسكم وجنّكم.

هنا تثاءبت "سوزان.. تمطّت بجسمها وأطراف يدها.. ثمّ استيقظت ونظرت يمينا وشمالا... ابتسمت وقالت لحيدر: أين نحن الآن؟ قال: في مدينة عين صالح.. لمجّرد سماعها "الاسم" سارعت إلى خريطة جغرافية تحدّد المواقع السياحية في الجنوب الكبير ثم قالت: ها هي، بدت عليها ملامح الغبطة والسرور، كان وجهها ينطق بالنظارة والجمال الفائق.. لأوّل مرّة أشاهد خانة تطبع خدّها الأيمن.. حين ابتسمت أضاءت وجهها فظهر انسجامه وتوافقه مع الجسم.. سرنا قليلا ثم اتّجهنا جنوبا.. ها هي الزّغاريد والهتافات تسمع من بعيد.. حركة الناس مستمرّة ذهابا وإيابا. هنا تسمع طقطقة الحمير والبغال والخيول والعربات.. والدواب تتعجّل المسير في اتّجاه مزار الولي الصالح "مولاي لحسن".

ها هي القبة الخضراء على بعد أميال من المدينة. ظلام حالك شديد السواد باستثناء بعض الأضواء القليلة الخافتة تحيط بالقبّة.

هنا نلمس كرم الناس وسخائهم في إكرام الزوّار بالأكل والماء والشرب.. بمجرّد وقوفنا بالسيارة جاء رجل بقصعة طعام تتّسع لعشرة من الناس مزوّدة باللحم والبيض.. نزلنا دفعة واحدة وشكّلنا دائرة حول الصينية الكبيرة... يتوسّط الصينية إناء عميق مملوء بالمرق واللحم والخضار والبطاطس والفلفل فهاجت بطون الأخوة بشهوة الطعام فامتدّت الأيدي.. فلا تسمع في هذه اللحظة إلاّ طقطقة الملاعق وانفتحت الشهية للأكل حين لمسنا رائحة السمن الزكية وهي طبيعية لأنّها مشتقّة من ألبان حيوانات تلك المنطقة.. عرفت ذلك من رائحتها.. كان الرجل واقفا على رؤوسنا وهو رهن إشارتنا.. يسكب لنا الطعام ويملأ لنا الصحن كلّما شعر بفراغه.

أتذكّره رجلا فارعا في الطول ملثّم بلحاف.. يحمل مصباحا كبيرا في يده اليسرى.. ويعمل بيده اليمنى.. ينزل الصحن مليئا ويردّ الآخر فارغا.

أذكره جيدا لكني لم أتأكّد من ملامحه لأنّ الضوء كان خافتا ولم يسعفني الحظ في تأمّل تقاسيم وجهه.

تأمّلت حيدر وعباس والطيب بما فيهم سوزان.. وجدت جباههم تعرق من فرط حرارة الأكل وسخونته.

نظرت إلى "سوزان" كانت منفعلة مع هذا الكسكس البلدي.. كان وجهها يلمع بقطرات العرق المنسابة من جبهتها.. كانت تتنفّس في عناء... بدت لي ملامح وجهها منطوية على الحبّ والصراحة والجنس.. يشعر المرء بها رغما عنه فينجذب نحوها.

رفعت رأسي وجدت الرجل الذي يزوّدنا بالأكل مازال واقفا مطأطئ الرأس نحو "سوزان" لا يتزحزح ولا يتحرك.. نظرت إلى "سوزان" مرّة أخرى وجدت الفستان الأبيض الذي ترتديه فوق ركبتها.. كشف عن فخذيها البيضاوين الممتلئين.. ففيهما من دواعي الفتنة ما يجعل هذا الرجل المضياف كالتمثال ينظر إليها بتمّعن وتركيز.. كانت تطفح من كل جهة... حتى أنا يا سادتي لم استطع أن أصمد أمام غرائزي الجنونية التي نهضت كمارد داخلي.

فجأة تنبّهت إلى مصطفى، أين هو.. لم يبق من الأكل إلاّ القليل.. سألت عنه، لم أظفر بجواب.. نهضت مسرعا واتّجهت إلى السيارة فوجدته مازال غاصًا في نومه.. يظهر أن أثر المهدّئ كان قويا.. حرّكته هززته بعنف لا فائدة حتى

سكبت الماء فوق رأسه.. هنا استيقظ متثاقلا.. جررته إلى رفاقي وهم في دائرة حول صحون الطعام.. لمجرّد وصولي مع مصطفى وضع صحنا مملوءا بكسكسه ومرقه... رائحته الشهية واللذيذة شدّت مصطفى.. فأقبل عليه بنهم كبير مستعينا بيده في كثير من الأحيان.

بعد أن ملأنا بطوننا استرحنا قليلا مع شرب الشاي... ولكن سرعان ما تعالت أصوات الطبل والتهليل والتكبير والتصفيق من جهة القبّة الخضراء نهضت ونهضت معي سوزان وحيدر.. أمّا عباس فبقي نائما بجوار مصطفى فقد أنهكه التعب.. الطيب أخذ عبد الجليل معه إلى المسجد المجاور.

وقفنا عند مدخل القبّة وجدنا ضريحا قيل لنا هو ضريح الولي الصالح "مولاي لحسن" محلّ الزيارة.

رفع حيدر يديه لقراءة الفاتحة تبعته أنا.. لم انتبه إلاّ مع كلمة آمين.

دخلنا.. لمسنا رحابة هذا الزار الذي يتّسع لعدد لا يحصى من النساء والرجال.. كان البهو آية من آيات فن العمارة مطليّ بالجبس وتتدلّى في زواياه أنواع كثيرة من المصابيح يقال أن هذا

الضريح يقصده الناس للشفاء خاصّة النساء المطلقات أو الأرامل أو العانسات ممنّ يفتقرن إلى الحظّ مثلما يقولون، ويقال أن المرأة العانس أو الأرملة التي لم تتزوّج تخرج من هنا والناس تتهافت على خطبتها.

شدّني الفضول لمعرفة هذه القصص التي رويت لي على عجل.

اخترقت الصفوف الأمامية حتى وجدت بعض الرجال في جلابيبهم الفضفاضة وهم يردّدون.. الله.. حيّ.. يا قيّوم.. يتعالى صوت الدفّ وتتعالى التصفيقات.. في وسط هذه المجموعة كانت امرأة ترقص وتضرب بشعرها يمينا وشمالا.. يظهر أنّها في غيبوبة من أمرها.. كانت تتنفّس في عناء.. تلبس فستانا بنّيا.. بدينة ممتلئة تتحرّك في انفعال مع صوت الدفّ.. أخذت أتأمّلها بمزيد من الانتباه.. نظرت إليها من الخلف.. حين تهتزّ مع الرقص تتحرّك محارمها يمنة ويسرة.. تشعر بكفليها الشامخين شموخ الجبال.. لها خاصرة فضفاضة طولا وعرضا.. في انحنائها وضرب شعرها يمينا وشمالا.. تحسّ بوقع ثدييها.. ورحابتهما.. متاهة في الكبر والانتفاخ لا تسعهما يد الرجل العادي.. حين تضرب بيديها ملوّحة بأصابعها تسيل قطرات شفّافة من جسدها فيحسّ

الناظر إليها بوخز في قلبه.

حاولت التعرّف على وجهها وملامحها.. وقفت أمامها في تلك الحلقة الدائرة الشكل.. بدت لي عيناها الواسعتان الغارقتان في ضرب من الظلام العميق... كان لعينيها أعماق.. شتىّ.. بإمكانك أن تغوص فيهما إلى الأعماق.. أحيانا تهزّ رأسها فتظهر لي تلك النظرة الناعسة الحالمة التي تقتحم القلب.

ذات قوام ممتلئ.. بيضاء الوجه تتخلّلها حمرة دفينة.. تحسّ وأنت تنظر إلى وجهها انّك تنظر إلى بحر. فأحسست أني أغرق... نظرت إلى عينيها الداكنتين الواسعتين فبدتا لغزارة أهدابهما مكحلتين تقطران شهوة وجاذبية أسرعت في الحركة مع إسراع الطبل.. فتحت فاها وافترّ ثغرها عن أسنان ناصعة البياض لم يستطع حيدر أن يقاوم غرائزه.. شدّته رائحة الحريم.. ترك سوزان ودخل في حلبة الرقص.. تظاهر بالانفعال والغيبوبة.. ألبسوه جلبابا ذو جناحين واسعين.. اقترب من تلك المرأة رمى حيدر أجنحته عليها وحين مسكها من خصرها.. هزّت رأسها المكلّل بخصلات الشعر الطويلة ملوّحة بالاستجابة رأيت حيدر يغيّر يديه إلى جهة النهدين.. وقفت جامدة من غير حراك في النقطة التي أثارت المشاعر

وهيّجت الغرائز.

رفعها حيدر من خاصرتها ورجليها ودخل بها أحد الغرف المظلمة.. لم اسمع منها بعد ذلك إلاّ الهمس والفحيح.

سوزان كانت مبتسمة وسعيدة ماسكة بعدستها المصوّرة وتلتقط الصور على مستوى حلقات الرقص والجذب.

خرجت من باحة الرقص والطرب فوجدت غرفة مضيئة بقنديل زجاجي ضوءه باهت قليلا إلى جانب هذه الغرفة باب يوصل إلى بهو مظلم.. تنبعث من أركانه رائحة غريبة على مقربة من هذا البهو يوجد شيخ في الستين من عمره يجلس فوق فروة في وسطها.. فوقه غطاء من الحرير الأحمر.. شدّني الفضول إلى معرفة هذا الشيخ وسرّ وجوده في هذا المكان.

تأملته.. وجه اسمر وانف أشمّ طويل.. يلبس عمامة خضراء له لحية كثيفة يصبغها لإخفاء الشيب.

توجد بعض التجاعيد الدقيقة على جبهته.. له حاجبان متقاربان... كان خدّاه ضامرين مقّعرين... يطوّق عنقه بمسبحة طويلة.

إذا نظرت إليه تتأكّد من شهوانية ونظرته البـاردة المخيفة... سألت عنه: قيل لي هذا الرجل قدم من مدينة

بشار منذ أربع سنوات يعالج السحر والعقم عند النساء.. كما يكتب الحروز والتمائم.. تتهافت عليه النساء بكثرة خاصّة من لم يكتب لها القدر بالزواج فتخرج من عنده والخطّاب يتهافتون لخطبتها.

نظرت إلى اليمين واليسار وجدت أعدادا هائلة من النساء في شكل طوابير يردن الدخول على الشيخ ولا تستطيع أي امرأة الدخول عليه إلاّ بإذن مسبّق وبوعد مبرمج آنفا.

حاولت التعرّف على العلاج وطريقته ولكنّي لم افلح في تحرّي الحقيقة الكاملة.. حتى جاءني حيدر ومعه تلك المرأة التي كانت ترقص... لمست في قسمات وجهها التراخي.. انتبهت إلى شاربيها الرقيقين ووجهها الجميل الليّن.

هل ألانها التزلّف والتودّد والاستغفار أم الشهوة والجنس والحبّ الذي يقطر من جسدها الممتلئ.

سألتني بفضول هل تريد مقابلة الشيخ.؟ قلت: لا.. أريد أن أعرف فقط.. مسكني حيدر من يدي وخرجنا وخرجت هي معنا.. ابتعدنا من القبّة الخضراء وبقينا نشرب الشاي.. لأوّل مرّة أسمع صوت هذه المرأة الشجيّ... كان أحلى وأحسن حين تهمس في أذن حيدر ويتغامزان على مرأى ومسمع مني...

حين تقف في ثوبها العسليّ الرجراج تظهر لي ملاكا فوق مستوى البشر... لأوّل مرّة أنتبه إلى الحنّة التي تصبغ قدميها وراحة يديها... حين ترقص مع حيدر فوق تلك الرمال تظهر لي ظلالها أكثر نحافة وشفافية.. شممت كل أنواع العطور والأطياب والمسك والبخور... حيدر يمسكها من خاصرتها ويقبّلها أحيانا.. بل يرشفها في هيام.. كانت تذوب في يده كما يذوب الجليد المتألق تحت وطأة الشمس.. ترقص وشالها الورديِ على رقبتها دائما.. كان حيدر يقبّلها باستمرار يمضغها فترتعش وتختلج.. هذا المنظر أثار غرائزي وهيّج مشاعري.

طلبت من حيدر التوقّف والجلوس.. ألا يكفي هذا الرقص والغناء والتقبيل حتى هذه الساعة المتأخّرة من الليل.

جلس حيدر وجلست بجواره.. رشفت كأس شاي كان معنا ثم تنهّدت... سألتها عن الشيخ صاحب العمامة الخضراء وسرّ علاجه لتلك الأمراض خاصّة أمراض النساء وكيف يحقّق الحظ للمرأة التي تريد أن تتزوج وتكسب حب الرّجال لها... ضحكت.. بل قهقهت بصوت مرتفع وهي تتمرّغ على تلك الرمال الذهبية ثم قالت: أخبرك الحقيقة وعاهدني أن لا تبوح بهذا السرّ لغيري.

فقلت لها على التوّ: سمعا وطاعة.. أعاهدك وأنا على ما أقول شهيد.

هنا سكتت برهة ثم قالت: هذا الشيخ الذي رأيته منذ مدّة مشعوذ وكذّاب.. استغلّ ضعف النساء في هذا الجانب فأوهمهم انّه يجلب لهنّ الحظّ في أزواجهنّ والناس أجمع.

المرأة العانس والمطلّقة والأرملة يعاهدهنّ بتهافت الخطّاب عليهنّ وطلب يدهن بمجرّد إتمام العملية... تسكت برهة.. تمسح دموعها ثم تقول: أخطأت أنا أيضا.. وقعت في مصيدته.. أخطأت وانحرفت.. لم أجد من يحميني ويوجّهني.

يا إخواني كل امرأة في هذا الوجود تريد أن تكون جميلة ومحلّ الإعجاب والحبّ من طرف الجميع... تريد أن تتزوّج مثل بقيّة الناس.. ترغب في أن تكون محبوبة من طرف الكلّ وهذه أمنية وغاية كلّ امرأة... أتحدّى من تنكر ذلك... هذه الرغبة الملحّة في كيان كل امرأة هو الذي سهّل عليه العمل.

عمله يا إخواني يتمّ بين مرحلتين.. في البداية يتكلّم مع المرأة.. يقنعها بالعمل الذي يقوم به ويتظاهر أنه يريد إسعادها.. يدخلها غرفة تكاد تكون مظلمة.. يأخذ قرطاسا وقلما ويبدأ في كتابة بعض الطلاسم على فخذي المرأة التي

يريد علاجها مدّعيا أن هذا المكان أقرب إلى مستودع السرّ مثلما يقول.

يمسح براحة يده على منابع الإحساس ومع كلّ حركة ومع كلّ لمسة يشعر أن عضلة في جسد المرأة ترتخي.. حيث يشعر أن فريسته استسلمت له.. يقضي وطره منها ثم يأمرها أن تبق مدّة أسبوع وتتوضأ وتعود إليه.

أثناء العودة يسألها عن حالها وإذا وجد استجابة منها يكمل العلاج بعملية ثانية.. ضحك حيدر وقال "حج وحاجة" مثلما يقول سكان الوسط. إنّه يضرب عصفورين بحجر واحد.. ينال من المرأة التي يريدها ويأخذ الثمن... هذا عمل ممتاز، ثم يقول: توسّطي لي عنده حتى أكون ساعده الأيمن وأبقى هنا معكم في مدينة التمور والنخيل.. مدينة الأولياء.

بقي من الليل ثلثه، لا نرى في هذا السّواد الحالك إلاّ بعض الأطياف النورانية التي تظهر وتختفي إنّها أضواء خاصّة بتلك الفوانيس التي يشعلها مصباح غازي.

مرّت ثلاثة أيّام كاملة متتالية والطقس موحش كئيب حارّ... شعرت بالتعب والإرهاق.. قلت لحيدر: أنا ذاهب إلى رفاقي.. أريد أن أنام.

مشيت مسرعا.. تبعني وهو ماسك بتلك المرأة.. كانت فرسا سهل الانقياد يمشي فتمشي ويقف فتقف معه.

التفتّ إليها وجدّتها تبتسم ابتسامة ساحرة.. عندما تمشي بكل ثقلها.. تبدو آلهة جمال هبطت مع نسائم الليل إلى الأرض.. أشعلت ثقابا أريد أن أشعل به سيجارة كانت معي فبدت لي بشرتها البيضاء كاللّبن الممزوج بشراب الورد.. عندما تنظر إلى عنقها الأبيض الطويل تتخيّله شمعة بيضاء متّقدة.. صدرها الممتلئ العريض وساقاها الملفوفتان الطويلتان يوحيان بالحبّ والشهوة والجنس... أتذكرّها.. كان كل شيء في جسمها الشابّ يطفح بالأنوثة والجمال.. لا تشمّ منها إلاّ أطيب رائحة.

مسكها حيدر من خصرها ومشى معي، يقبّلها أحيانا فأسمع رشف القبلة مع هدوء الليل وسكونه.. عرفت اسمها فيما بعد.. كانت تسمّى "عائشة" قدمت من مدينة.. تيارت.. تحت وطأة الفقر وصعوبة الحياة وقلّة الحيلة وانعدام الزوج فسقطت في براثن هذا الشيخ الملعون ودفعت الثّمن من لحمها ودمها.. وعدها حيدر بالزواج والوقوف معها في محنتها لكني اعرف نوايا حيدر التي لا تختلف كثيرا عن عمل هذا الشيخ.

اقتربنا من السيارة.. بدأت أسمع شخير عباس.

فضّل "حيدر" أن يبقى هنا بعيدا مع تلك المرأة التي تسمّى "عائشة" فهو لا يطيق رؤية الطيب وعبد الجليل وهو على تلك الحال.

تركتهما ومشيت بضع أمتار لأجد "سوزان" كالتمثال واقفة منتصبة تنتظر "حيدر" على أحرّ من الجمر أخبرتها بوجوده مع تلك المرأة.. انطلقت إليهما مسرعة... عدت إلى رفاقي يا سادتي... وجدت مصطفى غاصّ في نوم عميق شهيقه وزفيره مرتفع يسمع من بعيد، وضعت يدي على صدره شعرت بضربات قلبه الحادّة..

أحسست بفوران دمه... مصطفى يا إخواني مع شريط حياته البسيطة التي عاشها... تعود به الذاكرة في نومه حين كان طفلا يركض والمحفظة في يده يستقبل أمّه التي تنتظره على أحرّ من الجمر.

يسترجع حياته في بلدية "بوحنيفية" وفرحته بأصدقائه ولعبه معهم في أحواض الحمّام... هذا الحمّام المعروف في الغرب الجزائري كمنارة للاستجمام والاستشفاء.

كنت أشعر وأنا أضع يدي على صدره ببرودة دمه أو فورانه.. سرعة دقّات قلبه أو هدوئها كنت أرهف السمع

وأتأكد من حالته.

ها هي دقات القلب تسرع.. يترنح.. يتململ.. شعرت بحرارة دمه والعرق المنساب من جسمه.

إنه الآن مع زوجته "سارة" يتصورها في حضن ذلك الصعلوك "سالم".. يكتسحه شعور رهيب.. بقتلها.. يزداد انفعاله في رجة تشمل كامل جسمه.. يرتجّ جسده، يفتح فاه، يخرج لسانه.. تتعالى أنفاسه.. مسكين "مصطفى" لو رأيته في هذا الليل الحالك السواد لخيّل إليك.. شبح من أشباح الجنّ التي تتسلل مع ظلمات الليل.

نظرت إلى اليمين وجدت عباس غاصّ في نوم عميق.. عرفته من خلال شخيره.. تأملته وجدته منبطحا على بطنه وذراعه اليمنى ممدودة والأخرى تحت صدره.. رجله اليسرى مستقيمة والأخرى فوقها مكوّنا بذلك شبه زاوية حادّة.

رأسه غاصّ في الرمل..أ ثناء شهيقه وزفيره تتطاير حبّات الرمل من شدّة تنفسه.. تراجعت قليلا عن عباس... بحثت عن الطيب وعبد الجليل وجدتهما بجوار السيارة وهما في سكون تام.

أرهفت السمع لأنفاسهما.. لم اسمع منهما شيئا حتى

انتابني شكّ في حقيقة أمرهما.. اقتربت من الطيب..وضعت يدي على قلبه.. شعرت بضربات هادئة ثقيلة بسيطة كأنها دقّات قلب طفل لم يتجاوز الرابعة من عمره.

رفعت يدي ووضعتها على صدر عبد الجليل لأجد دقّات خافتة متباعدة مثل ضربات الساعة الجدارية.. كل شئ هادئ ساكن إلاّ من أنين مصطفى وشخير عباس.

ابتعدت قليلا وحاولت أن أنام.. شعرت بمزيد من الظلام.. وقدت ثقابا.. لم أر إلاّ الكثبان الرملية المترامية الأطراف وبعض أشجار النخيل التي تحيط بنا... سكون الليل وصمته المطبق جعلني أشعر بالخوف.. نبّهت حواسي كلها.. رفعت رأسي وجدت السماء تناجي نجومها والصخور المحيطة تتهامس.. أغمضت عينيّ وتوسّدت يدي.. شعرت بحركة.. نهضت.. وجدت دودة لا يظهر منها إلاّ تلك الخطوط المتقاطعة تحت الرمل كأنها كتابة من نوع خاص.. لم أتأكّد من حقيقتها إلاّ بعد أن أشعلت عود ثقاب وأزحت ذلك الشيء الذي يحدث تلك الخطوط فوجدته دودة.. ضحكت وعدت إلى مكاني.

فتحت عينيّ على الظلام الدامس.. لم تكن ثمّة علامة تستدلّ بها على الوقت... مرّت ثلاثة أيام متتالية الخميس

يوم انطلاق الرحلة والجمعة والسبت وغدا الأحد.

حاولت النوم.. طافت بمخيلتي ذكريات بعيدة وخواطر متباعدة.. استرجعت كلام عبد الجليل عن هذه الدولة ودعائمها المفقودة التي لم تتوفر بعد.. توقفت عند الرؤساء الذين يغيّرون دساتيرهم مثلما يغيّرون معاطفهم... توقّفت عند هذه القوانين والتشريعات التي تأتي على مقاييسهم وأحجامهم.. كل رئيس يقيس الأحكام على حسب طوله وعرضه.

تأملت الفلاحة في بلادنا..وأنا اعرف أن أزمة الفلاحة بدأت مع الثورة الزراعية بدون أن تصحبها ثورة فكرية... تذكّرت الألف قرية النموذجية..لم يبق فيها إلاّ الحمام.. وأصبحت الآن مأوى للخنازير... تصوّرت حجم الخسائر التي ضاعت هكذا... دارت في مخيّلتي فكرة المقاولات التي تكلّم عنها عباس.. كيف ترى الشابّ في بلادنا لا يملك حتى ثمن سيجارة ثمّ بين عشيّة وضحاها يصبح أثرى الأثرياء.

هنا خطرت لي نكتة متداولة تقول: أن مواطنا جزائريا ذهب إلى صديق له في إيطاليا فوجده غنيا مترفا وكان يعرفه من قبل ولا مال له.. فسأله عن سبب غناه... فقال له: استخرجت سجلاً تجاريا خاص بالمقاولات وأصبحت مقاولا..

أنظر أنجزت هذا الطريق السريع وقمت ببناء تلك العمارة وربحت من جرّاء ذلك أموالا لا تعدّ ولا تحصى... فكان الجزائري يسمع ويتابع باهتمام قول صديقه وقد أعجبته هذه الفكرة... وبعد عودته إلى أرض الوطن مباشرة قام بتكوين ملفّ كامل واستخرج سجلاً تجاريا خاص بالمقاولات والأشغال العمومية والبناء واستطاع في زمن يسير أن يصبح غنيا.

وقد زاره صديقه الإيطالي ذات يوم.. فوجده في قصر مشيّد.. فطرح عليه نفس السؤال الذي وجّهه له ذات يوم... ما مصدر كل هذه الأموال وهذه النعمة التي أنت فيها الآن... فقال له الجزائري: أصبحت مقاولا مثلك.. فتعجّب الرجل الإيطالي وسأله بفضول: ماذا أنجزت؟ فبدأ يعدّ له كل المشاريع التي أنجزها قائلا: قمت بترميم تلك المدرسة وتنظيف ذاك المحيط العمراني وحفر مجاري مائية و..و..و!!

رفع الرجل الإيطالي رأسه علّه يرى واحدا من تلك المشاريع على أرض الواقع ولكن الجزائري تنبّه لذلك وأردف قائلا: أنظر هنا في هذه المستندات والوثائق والمخطّطات التي تثبت ذلك... أمّا الواقع فلا تجد شيئا منه.. أضحكتني هذه النكتة، فقد كانت تعبّر في الحقيقة عن واقع مؤلم حدث ويحدث في الجزائر أساسه استنزاف ثروات البلاد والرشوة

والسرقة والمحسوبية وإفلاس البلاد والعباد.. يا إخواني طبول الحرب على الأبواب.. لا يترك الأوّل للآخر شيئا.

تصوّروا حجم الخسائر واستنزاف الأموال بدون مقابل.

سألت أحد المواطنين فقال لي: حتى الأحزاب الإسلامية التي تدّعي مخافة الله فعلت أكثر من هذا الشيء الذي تراه!.. فها هو رئيس بلدية معروف باتجاهه الإسلامي والذي كثيرا ما حدّثنا في حملته الانتخابية عن محاربة الغشّ والرشوة والسرقة.. هو الآن يفعل أكثر ممّا فعله السابقون الأوّلون.. فسرعان ما انتفخ بطنه وازدادت ثروته ازديادا فاحشا فملك القصور والسيارات ورمى الناس بالجهل.

توقّف هذا الرجل ثم تنفّس بعمق وقال: لم يغيّر هؤلاء إلاّ المصطلحات!!

قالوا عن الرشوة هديّة وعن السرقة شراكه.. تصوّر كيف بمسئول مثل رئيس بلدية يمنح مشروعا لأحد الأشخاص المعيّنين ويصبح بعدها شريكا له يأخذ نصف الفائدة.. اللعنة على هؤلاء ومن تبعهم.. اغتنموا فرصة حبّنا للدين وضحكوا علينا.. ولكن الويل لهم من عقاب الله... طافت في مخيلتي خواطر كثيرة متداخلة أذهبت النوم عني... شعرت بطول

الليل وسكونه ورهبته.. أرهف السمع ولا أسمع شيئا إلاَ تلك الأصوات التي ألفتها... أصوات الحيوانات والطيور والحشرات.. نقيق الضفادع لا ينقطع ونباح الكلاب.. صوت الصراصير... صهيل حصان من هنا وهناك نهيق حمار يتعالى من جهة الجنوب.. نظرت يمينا وشمالا.. مازالت ظلال الظلمة تلتفّ حولنا.. يبدو الظلام كالغيم يجعلني أشعر بالخوف.

على الرغم من التعب الذي أشعر به لم أنم.........
أصغيت أكثر لهدوء الليل وسكونه.. مازال صوت النايات والمزامير والطبول يصلني من بعيد.. هبّت نسمة من جهة الغرب... لأوّل مرّة أشم رائحة الشّذى والطيب والعبير.

أستنشق بقوّة العطور والأطياب والمسك والبخور.. أصبحت أكثر قوة، انتعشت، تنبّهت حاسّة الذوق والشمّ لديَ.. أرهفت السمع أكثر.. وضيح الثعالب والأرانب وعواء الذئاب بكثرة، كما سمعت أصواتا متداخلة بين المعاء والنعاء والشخير والحمحمة والزغردة والتغريد والصداح والنواح والهديل والهتاف والنقنقة.. لكن ما أفزعني وقضّ مضجعي هو هذا الفحيح الذي يصلني تباعا.. هل هو صوت أفاعي وحيّات وثعابين.. نهضت مسرعا واقفا مذعورا وتبعت صدى الصوت..

هاهو يصلني من جديد.. تقدّمت في حذر شديد، يزداد هذا الفحيح قوّة كما تزداد معه رائحة المسك والبخور.

يا إلهي ماذا يحدث.. توقّفت برهة من الزمن. هناك الهمس.. وقفت في مكان مرتفع أترقّب النظر..هناك مصباح باهت ينير وينطفئ.. تقدّمت جهة الضوء ثم تريّثت قليلا.. رفعت رأسي.. أخذت طلائع الفجر تتسلّل إلى السماء وخيوط الفجر الأولى ترتسم في الآفاق.

تشجّعت على المشي قدما في اتّجاه هذا الصوت.

لقد أصبح الآن أكثر وضوحا.. إنّه صوت حيدرة.. ها هو صوت سوزان يعقبه صوت عائشة.. أعرفه إنه ذلك الصوت الشجيّ الذي يميل إلى الاختناق.. مشيت على أطراف أرجلي بكل حذر حتى اقتربت كثيرا.. هاهي سوزان عارية من كل شيء... صدرها العذري نصف العاري تحت ثوبها الصيفي الرقيق.

ها هي تنحني قليلا إلى الأمام تاركة كفليها عرضة لسهام حيدر ونباله.

حيدر يرفع صوته مزمجرا قائلا لسوزان: ارفعي طرفك قليلا حتى أتمكّن من غرس رمحي فأنا صاحب ثأر.. ومنذ ذلك

الحين ونيران الحرب مشبوبة.. راح يعتصرها بقوة ممزوجة بالحنان هذه المرّة، ويؤكّد لها بضمّاته وقبلاته وقوته المدّخرة مدى عرفانه بالجميل، لأنّها أثبتت له إحساسه بالرجولة الكاملة.

أمّا هي فكانت تئنّ تحته مردّدة.. يا مولاي وسيدي أقتلني، اسحقني بقوّتك.. ها أنا بين يديك.. ترتفع الأرجل وتتداخل وتلتحم الأطراف والأجساد.. المعركة حامية الوطيس.. حيدر لم يكن طالب ثأر.. كان يحبّ سوزان.. عرفت ذلك.. كان حبّه لها مزيجا رهيبا من الاشتهاء والحنان.. كان يحبّها كإمرة كاملة الجمال والأنوثة.. ويحبّها كملاك طاهر برئ.. يحبّها جسدا ويحبّها روحا.. يحبّ جمالها المتفتّح في كل ملامح جسمها الشاب.. ويحبّ عقلها الذكيّ وقدرتها على التحمّل والجلد.

عائشة يا سادتي أثارها ما رأت من حيدر وسوزان.

ها هي بجوارهم عارية صارخة جاذبة.. كلّ شيء ينبض شهوة وجمالا.. لأوّل مرّة يكتسحني شعور رهيب بالرغبة في ضمّها وعصرها بين ذراعيّ لا سيّما وقد بدت لي كزهرة عاطرة تغري بالقطف والأكل.. جائع أنا إليها ظامئ إلى جسدها... يا إلهي نفذ صبري.. حيدر يقف والعرق ينساب من جبهته

يمسك عائشة يضمّها يقبّلها.. يعصرها بين ذراعيه ثم يلقيها أرضا.. يتعالى الهمس والفحيح.. يختلط الحابل بالنابل.. تقف سوزان لتسقط عليهما من جديد.. تتداخل الأصوات وتتباين الأشكال.. أرى كرة من لحم ودم.. ها هي خطوط متقاطعة.. زاوية قائمة تصبح حادّة ها هي منفرجة.. ها هو حيدر ينتصب من تلك المرأة المنحنية.. الأنين والصراخ يزداد قوة أصوات متقطعة تصلني.. يا مولاي.. يا حبيبي.. يا سيّدي أقتلني أوقف هذا الألم.. سوزان تتألّم.. تبكي... حيدر يثأر.. ينتقم، رمحه يزداد حدّة وطعنا.. يضرب يمينا وشمالا يقفز بين سوزان وعائشة.. إنّه الآن بين النار والصقيع.. يصبح اللهب بردا وسلاما عليه.. يا إلهي يتوقّف الصوت فجأة ويسكت الأنين والفحيح، الحرب وضعت أوزارها إذن.. تراجعت إلى الوراء.

رفعت بصري إلى السماء.. تباشير الصبح لاحت في الأفق.

رجعت إلى أصحابي مسرعا.. وجدت الطيب وعبد الجليل يصليّان عباس مازال نائما، أيقظته فهبّ مسرعا على عجل.. تذكّرت مصطفى.. أين هو؟ يا للمفاجأة، وجدته مستيقظا جالسا واضعا رأسه بين ركبتيه.. صباح الخير مصطفى كيف حالك؟ يردّ متمتما.. لم أتأكّد من كلامه لكنّه يبدو أفضل حالا

ممّا كان عليه شدّني صوت حيدرة يقهقه كعادته، يا إلهي وصل ها هو بين سوزان وعائشة.. بدا لي لأوّل وهلة كأرض خراب بين حديقتين أو بستانين يانعين.. سألته كأني لا أعرف مكانه، أين كنت!! أجابني وهو يشدّ على يد سوزان ويضع يده الأخرى على خاصرة عائشة.

تسأل أين كنت.. أنا المرابط خلف رمحه.. رأيت بين الأعشاب هاوية فأعلنت الحرب بعد الحرب وغصت برمحي ونبلي.. فتحت بابا بل أبوابا.. شربت ماء الينابيع، أرخت سيرتي في شقائق هذا المكان الجميل وضمّ سوزان إليه بقبلة حارّة ثم أردف يقول: نحن الذين احترقنا بشمس البلاد.. احترقت من لهب عائشة فخفّفت وطأة الحريق من صقيع سوزان وبردها.. ونظر إليهما من القدم حتى الخصر وقال: فتحت فوق هذه السفوح ممرّات.. تمتّعت بهذه الأبراج التي قاومت الفناء استنشقت روائح العطور التي تقف معلّقة فوق هذه الأحواض الجميلة والتي جثمت عليها.. حيث تنطلق الروح الحبيسة ونمت بعد عناء طويل فيه حرث وزرع وقطف.

عائشة تحبّ المحاريث وسوزان تحبّ السيوف.. واشتغلت بمحراثي مثلما اشتغلت بسيفي وها أنا كما أنا.. بطل مغوار.. فتحت الكثير من المقاطعات والمستوطنات والأبراج.. ثم ضحك

بكلّ قوة.

ضحكت معه أيضا بعد أن عرفت المغزى من هذه المقاطعات والمستوطنات التي لا تخرج عن مساحة هذا الجسد البضّ الدفين جسد سوزان وعائشة.. هنا شعرنا بحركة الطيب وعبد الجليل فسكتنا.

السلام عليكم... وعليكم السلام الطيب يتعجّل الرحيل.. عباس يصرّ على شرب الشاي أوّلا ولكن عائشة استطاعت بخفّة غير معهودة أن تأتي بإبريق الشاي من تلك القبّة الخضراء حيث ضريح "مولاي لحسن" شربت جرعة من هذا الشاي اللذيذ ورفعت رأسي.. هاهي عائشة بطولها الفارع أمامي. تأملتها وجدت قبضات أصابع حيدر فوق هذا الجسد الناعم وعلى مستوى الخدّ والعنق... تبدو سعيدة سكرا من تيار الحياة الدافق الذي ربطها.. بحيدرة.. ليلة أمس.

دقّقت النظر إليها من القدم حتى الرأس.. كانت كحصان بلا لجام ولا سرج تستطيع أن تركب إن كنت فارسا وتسابق الريح... كل شيء فيها جميل.. هذه أرض لا موت فيها ولا بوار مقدّسة كلها تصلح للحرث مثلما قال حيدرة.. هنا انتبهت إلى صوت عبد الجليل يتعجّل الرحيل قائلا : تأخّرنا.. تأخرنا فجأة وجدت مصطفى يرشف كأسا من الشاي بدون أن يدعوه

أحد.. إنّه أحسن وأفضل.. ربّما المهدّئ لعب دوره في راحة مصطفى.. لأوّل مرّة أرى وجنتيه محمرّتين.. مشى الدم في عروقه.. نظرت إليه فابتسم مستبشرا خيرا هذه المرّة.

ركب حيدر سيارته وركبت سوزان بجواره وركبنا نحن في الخلف.

بقيت عائشة واقفة كصفصافة.. لأوّل مرّة أرى الدموع تسيل من خدّها الأيمن.. ونشرت من فمها الوردي كلمات.. ربّما مع السلامة أو رحلة موفّقة... هالني ما رأيت فبكيت معها.. تأثّر حيدر لحالتها فنزل وقبّلها قبلة حارّة، رأيت تفتّح شفتيها الرقيقتين كأنّهما أكمام زهرة رائعة.

يا لجمال عائشة وروعتها.. قامة ممشوقة وجسد مرتو.. كعود قصب أخضر.. فشاع الحسن في كل موضع وتطاير في الجوّ شذى العطور... كانت بهاء ونورا وفلاّ وياسمين حيدر يضمّ عائشة إليه ويخبرها أنّه سيعود في أقرب وقت ويأخذها معه.. سيتزوجها ويخلّصها من ذلك الشيخ المشعوذ.

سمعته يقول لها.

لا تبكي يا غزالتي.. سأدافع عن شجر التفاح الذي اشتهيته، أنت الأمل وأنت الأرض والمكان.. سأختبئ في

معبدك إلى الأبد وأشرب شايك وأصغي إلى نبضك في براعم أشجارنا التي تلد وتخصب.

لا تبكي يا حبيبتي ونحن نودّع نيراننا.. سأعود وأنام تحت نخلتك، سأهزّ جذعها وأعلّق سلاحي فوقها وأموت في أعشاب أحواضك.. وأعود منتصرا كما جرت العادة دائما.

هنا تضحك سوزان وتبتسم... عبد الجليل بجواري فاتحا فاه ينظر بذهول والطيب على غير عادته ينظر بخشوع أكثر من خشوعه في أداء الصلاة عباس يضرب سطح السيارة بعنف ويصرخ في وجه حيدر قائلا: كفى يا أخي أنت تلعب وتمرح وسط الحقول والأعشاب ونحن نموت كمدا.. قد ذهب عقلي وجنّ جنوني.. غرائزي أفقدتني صوابي هيّا أسرع... أسرع هنا تنبّه حيدر لصوت عباس يصرخ، فيعيد القبلة من جديد ويمسكها بقوّة.. يلتحم الجسدان ويختلط البحر بالبحر ولم يبق إلاّ تمديد الأنابيب... إذا تأمّلت حيدر يظهر لك كوحش يؤسّس مملكة في حديقة غنّاء.. ثم تأخّر عنها متراجعا خطوتين إلى الوراء.. تركها مغشيّا عليها وهو يقول: لا تودّعيني.. سأواصل حرب الإبادة وأعود منتصرا.. لا تطلبي المغفرة، سأكسّر بوصلة البحر كي تستقيم سيوفي ورماحي.. سأقتل العشب أكثر.. سأحفر بئرا هنا في مدينة التمور

والنخيل... وأعيش بين الماء والنار حيث ولدت وحيث أموت... لا تودّعيني.. تركها وركب سيارته على عجل وانطلقت الرحلة صوب مدينة ورقلة.

تصاعد الغبار واختفى شبح عائشة وصوتها.. قلت في نفسي لا ينبغي أن أبقى صامتا، في مدينة ورقلة سأفتّش عن غيابي وأفرض وجودي.. سأخرج من هذه العقد والحواجز والمتراكمات التي جعلتني متناقضا في كل شيء أحبّ وأكره في نفس الوقت.. أوافق وأعارض معا.. نحن نضمر أكثر ممّا نصرّح... متى نتخلّص من هذا المرض الذي لم ينجوا منه أحد حتى الطيب وعبد الجليل مثلي تماما يعانون من نفس المرض.

يرتفع أزيز المحرّك.. نمرّ على المدينة التي أتينا منها البارحة لنتزوّد بالوقود.. سألنا عن المحطة فقيل لنا هي في آخر الشارع الرئيسي.

اتجهنا صوب الشارع المذكور فوجدنا لافتات متعدّدة لأحزاب مختلفة قال عباس: أكثر من واحد وعشرين حزبا تتنافس في انتخابات 30 ماي 2002 القادمة للتشريعات.. وجدنا شعارات مختلفة.. أحدهم رسم إبريقا والآخر مشعلا وهناك من رسم شمسا.. قال عباس معلّقا: ألا تكفي هذه الشمس المشتعلة التي أحرقتنا في جلودنا حتى يأتي هذا

الحزب بشمس أخرى!!.. قرانا تحت اللافتات بعض العبارات منها.. قوّة التغيير.. قوّة التجديد، هناك لافتة أخرى كتب عليها.. قوّة فعّالة.

قال عباس معلّقا "قوة فعّالة" هذا الشعار يذكّرني بعلب الصابون، في الدعاية له تكتب هذه العبارة. اللعنة على هذه الأحزاب.. إنّها تشبه تماما الصابون فهم مثل الزبد الذي يذهب جفاء. وصلنا إلى آخر الطريق حيث المحطّة.. توقّفت السيارة.. نزل حيدر ثم تلته سوزان.. كانت كالهواء المتردّد الذي يهب الإنسان حياته وقوته.. وقد أثارتها نفخة من الهواء الحار فرفعت عنقها إلى السماء فبدت لي كفضاء مقدّس يصلح للعبادة.. كانت السنة النار تعلو وتتعانق وتتصاعد.. إشتدّ الحرّ... نظرت إلى الحائط المقابل يا إلهي ماذا أرى.. شيوخ من المسنّين الطاعنين مشرئبّة أعناقهم في اتّجاه سوزان ينظرون إليها نظرة خشوع وإجلال وربّما نظرتهم تنحصر بين الصرّة والفخذين.. قلت في نفسي... مساكين هؤلاء قوافلهم ظمأى.

انتبه حيدر إلى تلك العيون المحدّقة.. أسرع إلى سوزان.. مسكها من يدها ووضع يده الأخرى فوق بطنها الناعم وقال لهم.. تبّا لكم يا شيوخ النحس.. فوق سطح البحيرة هذا

أبشّركم بالحضارة.. حقول الليمون لي وحدي واسقط في النهر وحدي أعرف أنّي أغرق.. سأبحث عن قتلاي وأغوص ورائهم.. ثم صرخ بصوت مرتفع.. انهضوا هذه تماثيل الحرّية فردّوا التحيّة بأحسن منها وانصرفوا هنا ركبت سوزان في مكانها وركب حيدر بجوارها وتنطلق الرحلة.

كان الوقت ضحى وكانت الشمس حارّة ترسل أشعّتها المتوهّجة في الآفاق.. مازالت الكثبان الرملية تحيط بنا من كل جانب.. أشجار النخيل منتشرة هنا وهناك.. قطعان إبل بيضاء ورمادية داكنة تظهر أحيانا وتختفي... مصطفى هذه المرّة يقظ يتعجّل السير... يظهر أن بركة الولي الصالح "مولاي لحسن" نزلت عليه... رأيته ينظر من نافذة السيارة ويتأمّل طائر العقاب يسبح في الفضاء... كان يتمنّى لو يمسك بأحد رجليه ويطير معه.

أزيز المحرك يرتفع.. السّراب مازال يضرب كاللآلئ.. حاولت أن اكسر جدار الصمت الذي طال... سألت عباس عن هذه الأحزاب والانتخابات.. وهل تخرجنا من المأزق الذي نحن فيه..

قال عباس بنبرة حادّة.. لا تنتظر شيئا من هذه الأحزاب الطفيلية التي تريد المزيد من المكاسب على حساب الشعب. ثم

أردف يقول: الأموال التي صرفت بالملايير على الحملة الانتخابية كافية لإطعام شعب بحاله.

عبد الجليل ينضمّ إلينا دون سابق إنذار قائلا: هناك أحزاب إسلامية يرجى منها الخير مثل حركة مجتمع السلم.. وحركة الإصلاح.. وحركة النهضة..

عباس.. حركة السلم.. أي سلم هذا الذي تتحدث عنه..

أجابه عبد الجليل بصوت مرتفع: كيف لم تسمع بها هي التي تتّخذ الشمس رمزا لها وتعتمد على عبارة كتبت بالبند العريض "قوّة التغيير" ضحك عباس بل قهقه وتحرّك بكل جسمه.. حركة السلم.. ألم تكن هذه الحركة سابقا هي حركة الإصلاح والإرشاد ثم انتقلت إلى "حماس" وشتّان بين حركة حماس الفلسطينية وهذه الحركة التي تشبه الحرباء تتغيّر حسب الأحوال والظروف.

عبد الجليل يحتجّ.. يظهر انّه من هذه الحركة.. أو من المتعاطفين معها.

يقول: هذه الحركة منهاجها الإسلام وهي تهدف إلى بناء مجتمع إسلامي أساسه العدل والهوية العربية والإسلامية.. يردّ عليه الطيب: ماذا فعلت في هذه الحقبة التي شاركت

فيها في الحكم على مستوى البلديات أو التشريعات ولها بعض الحقائب الوزارية.. ألم تفعل أكثر ممّا فعله الأوّلون السابقون.. ألم يخرج منها بالونات في المال والقرصنة والابتزاز.. ألم تنتفخ بطونهم مثل غيرهم وها هم ينهزمون من جديد ليظهر الحزب العتيد العتيق "جبهة التحرير" من جديد.

حيدر يلتفت إلينا ويسأل عن الحلّ!! من يخرج الجزائر من عنق الزجاجة.. من يوقف هذه الاختلاسات والرشاوى والسرقة جهارا نهارا.. من يوقف تلك المشروعات الوهمية التي تذهب فيها أموالا طائلة..

يتدخّل عباس.. يفسح له المجال هنا باعتباره صاحب خبرة وتجربة في النظام.

يقول: يا إخواني.. لا ننتظر من الأحزاب شيئا ولا من الأشخاص غير ذلك.

فالأحزاب كما ترون عبارة عن أثواب يلبسها المرتزقة واللصوص للوصول إلى السلطة.

فقد كانت تحكمنا جبهة التحرير بوجه واحد وعملة واحدة وعندما كرهها الناس وتمرّدوا عنها في أحداث أكتوبر خرج

حـزب آخـر بـديل هـو مـن صلبها يـسمّى "التجمع الـوطني الديموقراطي" والعناصر التي كانت تنشط في الحـزب الأوّل... انتقلت إلى الحزب الثاني على أساس التجديـد والتغـيير وبعـد حقبة من الزمن هاهم يعودون إلى الحزب العتيـق.. وتأكّـد مـن هنا عنى مدار عشر سنوات سيحتجّون علـى جبهـة التحريـر وتظهـر مظـاهرات... عندئـذ يخلـق حـزب آخـر مـن جبهـة التحرير على غرار التجمع الوطني الديموقراطي ليمتصّ غـضب الشعب وهكذا.. تأمّلت كلام عباس.. وجدته على حـقّ.فنفس العناصر تحكم مع تغيير الأسماء.. فقط هؤلاء ينزعـون أثـوابهم ليلبسوا أثوابا أخـرى جديـدة وهكـذا فحـالهم أشـبه بالثعـابين التي تغيّر جلدها مع كل حقبة زمنية.. عبد الجليل يسأل عـن سياسة النظام المتّبعة.. يردّ عليه عباس وكلّه ثقـة فيمـا يقـول: يا أخي لا تقف في وجه العاصفة... لا تقف ضدّ الرياح المضادّة وستعيش في أمن وسلام...

حيدر يرد. يا أخي عبـاس أريـد أن أعـيش أن أتمتّـع مثـل غيري، أن يكون لي موقعا على الأقلّ في هذا الوطن... سـئمت من حياة الحلّ والترحـال.. تعبـت... عبـاس ينظـر إليـه وهـو يبتسم.. يا أخي المكان مـشغول، فيـه أحـزاب طفيليـة كـثيرة ومتطفّلون كثيرون.. ولكن لا يهمّ.. عليـك فقـط اغتنـام الفرصـة

ولا تنسى أن تصفّق مع المصفّقين... ارفع علم الجزائر فوق سيارتك وادّعي الوطنية والإخلاص للوطن... ستنجح بدون شكّ وستجد من يأخذ بيدك.

مصطفى يا سادتي متمعّن فيما يقول الرّفاق وهو أكثر بصيرة ويقظة.

ينظر إليهم ويحدّث نفسه.. الأحزاب متساوية.. الإسلامية أو غير الإسلامية.. الأشخاص متساوون أيضا.

فهناك من يظهر تصرّفه وهناك من يخفيه.. حيدر أو عباس أو الطيب أو عبد الجليل كلّهم شخص واحد، فلان هو فلان.. وإذا كان حيدر يظهر أعماله جهارا نهارا ولا يبالي، فهم يتستّرون فقط.. رأيت الطيب كيف يغتنم الفرصة وينظر إلى سوزان من الرأس حتى القدم.. ورأيت عبد الجليل ينظر بذهول وخشوع أثناء معانقة حيدر لعائشة لحظة وداعهما الأخير.

وحتى الشيوخ الطاعنين في السنّ رأيتهم في عين صالح عند محطة الوقود كيف ينظرون إلى سوزان.. يكادون يلتهمونها بأعينهم... هؤلاء الشيوخ الذين يتباهون بطهارتهم وأورادهم المأثورة ويسبّون كل امرأة متبرّجة خارجة من بيتها... هاهم

يملكون نفس الرغبة والشهوة التي يملكها حيدر ثم يقول: على الأقلّ حيدر أفضل منهم وهو صريح فيما يقول وفيما يفعل.

مصطفى يضع يده على رأسه، يتذكّر جاره "حمزة" هذا الشيخ العجوز الذي وصل إلى السبعين من عمره أو أكثر تزوّج في السنة الأخيرة من فتاة لم يتجاوز عمرها السادسة عشر رأيته كيف صبغ لحيته وشاربيه وهو في حالة فرح ومرح ويتباهى بهذا الزواج أما خلاّنه وأصدقائه ثم يقول: يا إلهي الحياة كلها لعب ولهو ونفاق وباطل.. أين الصواب وأين الخطأ؟!

هل الجزائر بحاجة إلى شخصية مثل عباس أو حيدر أو عبد الجليل أو الطيب أو مثل حمزة هذا الشيخ الهرم.. فكلّهم سواء شخصية واحدة لعملة واحدة مثلما يقول عباس.. كلامه على حقّ... الشمس تنزل باستمرار وأزيز المحرّك يرتفع.. بدأت تتناقص الكثبان الرملية... مازالت الأرض قاحلة دكناء باستثناء بعض أشجار البطّام هنا وهناك.

ينخفض صوت المحرّك شيئا فشيئا، استوت الطريق.. هاهي نخلة وارفة الظلّ على جانب الطريق... قطعان متفرّقة من الماشية... هاهو رجل يضرب بمزماره أمام غنمه... هذا رجل فوق جمله يستعجل المسير.. لوّح لنا بإبريق شاي لكن

حيدر لم يتوقّف هاهي خيمة سوداء ضاربة أطنابها على جانب الطريق.. أمامها قطعان من الغنم والإبل.

أمرت حيدر أن نتوقّف قليلا للاستراحة فقد أنهكنا التعب.. حيدر أعجبته الفكرة وتوقّف على بعد أمتار من هذه الخيمة نادينا من بعيد.. يا محمد.. يا محمد فاسم محمد اسم يستعمله الجميع هنا للإنسان الذي لا يعرف اسمه تيمّنا وبركة برسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ازداد نباح الكلاب التي كانت مربوطة على أطراف البيت.

كان الوقت بين العصر والمغرب على ما أذكر.. لحسن حظّنا جاءت سحابة خففت من وطأة الشمس المحرقة.

تقدّمنا قليلا في اتّجاه البيت وكان يتقدّمنا حيدر وسوزان تمسك به مذعورة من نباح الكلاب المتصاعد.. هنا خرج رجل بدوي في سنّ الأربعين واستقبلنا مهلّلا مكبّرا يا مرحبا يا مرحبا.. رجل شديد السمرة نحيف يلبس عمامة وسروالا فضفاضا وحذاءا مصنوعا من جلد الإبل كان رجلا مضيافا كريما سخيا على ما يبدو.. لمست انسجاما في الكلام بينه وبين حيدرة.. أدخلنا إلى خيمته.. كان يعيش بمفرده في تلك المنطقة النائية بدون امرأة ولا ولد.. بسرعة مذهلة لم اشعر بها جاءنا

بإبريق شاي وملّة أخرجها من بين الرّماد المتطاير على حافة الخيمة... كانت لذيذة لم أنس طعمها وحلاوتها خاصّة مع الصحن الذي وضعه أمامنا فيه قليل من السمن والربّ.. أكلنا بنهم ورشفنا الشاي.. ذقنا طعم الراحة مع هذه الاستراحة القليلة.

سوزان فرحت بمنظر الإبل والنّياق فأخرجت عدستها المصوّرة والتقطت صورا ثم فضّلت أن تركب أحد النّياق فأناخ لها صاحبنا ناقة فركبت.. كانت كملاك.. كشمس.. بدت لي كحمامة بيضاء خاصّة حين حرّكت نسمة شعرها الأشقر الجذّاب وانفتح القميص الأبيض الشفّاف كاشفا عن بياض هذه الأفخاذ الملفوفة عن سرّ كمين. لكز الرجل ناقته فنهضت واقفة ومشت.. سوزان تمسّكت بسنم الجمل وفرحت فرحا شديدا.. لحق حيدر بها وهو يقول: كيف يضيّع شخص غزالته في البراري.. توقّفي يا ظبيتي.. على ركبتيك أحيا وأموت ومستعدّ أن أخرج من كامل جلدي ولغتي في سبيلك... حصاني في أقصى الجنوب اختفى وحصاني الآخر على وشك الرحيل.. هيّا انزلي أنزلها رغم إصرارها وهو يقول لها: من سينزل أعلامنا من سيدقّ أجراسهم غيرنا.. عانقيني لأولد ثانية في حروب الدفاع عن الثلج.. يا مدينتي يا فرسي.. هيّا نذهب إلى

الصخرة التي تحمل اسمي فوق تلك الهضاب... مسكها من يدها وأنزلها ممطرا إيّاها بقبلات حارّة أذابت الصخرة والجليد... أنزلها بلطف ومشى معها برفق نحو تلك الصخرة المرتفعة.

الطيب وعبد الجليل وعباس يتبادلون أطراف الحديث بشأن السياسة.. عبد الجليل يقول لعباس: حسب رأيك لن يكن هناك أمل في إصلاح البلاد والعباد؟ يؤكّد عباس هذه المرّة بتحليل دقيق ومنطقي أثبت فيه أن أزمة الإنسان العربي تعود إلى المخاوف التي يعاني منها والمكبوتات والعقد والحواجز بفعل الدين والسياسة والمجتمع.. يخاف على نفسه وعلى مستقبله وعلى مصير أبنائه.. هذه المخاوف سبّبت له انفصام في الشخصية... حيث نلمس ذلك التناقض بين ما يعلن وما يضمر ما يخفى وما يصرّح.. يقول ما لا يفعل وتولّدت عن هذه الأشياء ازدواجية في القول وفي الفعل.

الطيب يطلب التوضيح لم يفهم بعد.. يعتدل عباس في جلوسه.. يرشف جرعة شاي ويقول: منذ الاستقلال إلى يومنا هذا ونحن نصفّق لكلّ حاكم أو رئيس والذي يأتي يفعل أكثر ممّا يفعله الأول.. أحزابا أو أشخاصا أو أنظمة.. لأنّ القضية مرتبطة بذهنية الإنسان العربي وطريقة تفكيره في الحياة.. عبد

الجليل يسأل عن الحل؟!

يجيب عباس وكلّه ثقة بأن الحلّ لا يأتي ما بين عشيّة وضحاها وإنّما هو عمل متواصل يبدأ بتحرير الإنسان من هذه المخاوف في البيت وفي العمل والشغل والمدرسة وأمام وطنه.

نؤمّن حياته بمؤسّسات مستقلّة تضمن حقّه ووجوده في الحياة.. نعوّده على الكلمة الحرّة النزيهة أمام والديه وأمام معلّمه وأمام دولته ككلّ... نحترم وجهة نظره.. نزيل عنه الممنوعات فكلّ ممنوع مرغوب فيه.. نزيل عنه العقد والمكبوتات والحواجز حين يعبّر عن نفسه بكلّ حرّية.. نضمن له حرّية الرأي.

عندما نحقّق هذه الجوانب نصنع جيلا صريحا مع ذاته ومع نفسه بعيدا عن الشّقاق والنّفاق وسوء الأخلاق وهذا ما ينقصنا بالفعل وهذا ما تجاوزه الغرب في تحقيق ذاتية الإنسان مع نفسه ومع المجتمع.. حيث نجد الأوربي لا يكذب ولا ينافق لانعدام السبب الذي يدعوه إلى ذلك.. فهوّ حرّ فيما يقول وما يفعل.

أمّا الإنسان العربي فيخاف من المجتمع ويخاف من الدّين ومن السياسة ومن السلطة.. هذه المخاوف تولّد له الكذب

والنّفاق.. لا يستطيع أن يقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، بل يواري ويتستّر ويكذب حفاظا على حياته ومستقبله.

تأمّلت في كلام عباس وجدته على حقّ وصواب... هنا حضرني مشهد أذاعته قناة الجزيرة الفضائية بقطر مفاده.. يدور حول الاستبداد.. وهنا طرح سؤال يقول فيه صاحبه: هل الحاكم العربي يولد مستبدّا أم المجتمع هو الذي يجعله حاكما مستبدّا؟!

كان الاتفاق على أن المجتمع هو الذي يجعل الحاكم مستبدّا بدليل أن الإنسان يولد على الفطرة فهو كالورقة البيضاء خالية من كل نقش.. لكنّها قابلة لكلّ ما ينقش عليها.. ونظرا لازدواجية الشخصية والريّاء والنّفاق الذي يعاني منه المواطن العربي نتيجة للمخاوف التي سبق ذكرها، ينشأ هذا التناقض في القول والفعل والعمل وينتج عنه ظلما وتعسّفا واستبدادا... لم أشعر بالوقت حتى لمست الظلام قد أرخى ستاره على ربوع هذه الصحراء.. تفقّدت مصطفى أين هو؟ أوقدت ثقابا وناديت... فما من أحد.. تقدّمت قليلا.. أرهفت السمع.. سمعت هذيانا وصراخا.. واصلت السير قدما.. ها هو مصطفى ملقى على ظهره ينظر إلى السماء بذهول.. محدّق

البصر وهو يقول.. يا غفّار يا رحيم يا ستّار.. استرنا من عذابك وأغثنا يا رب.. أدخلنا جنّتك مرّرنا على صراطك.. أفزعني حال مصطفى.. اقتربت منه أكثر.. وجدته عاري الصدر أحمر العينين ممدّد القامة كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمنة ولا يسرة.. مازال في كلامه وهذيانه... مصطفى يا سادتي في حلم رهيب...عرّجت نفسه من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى.. جاءه حصان ذو جناحين.. امتطى صهوته وطار به في السماء.. مصطفى يقول: أعلى.. أعلى.. فأعلى والحصان يسبح به من سماء إلى سماء حتى وصل به إلى السماء السابعة... هنا وجد أمما غفيرة من البشر لا تعدّ ولا تحصى.. يوم مهيب فضيع... يوم تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

يسأل مصطفى عن هذا اليوم المهول.. ولكن ما من مجيب.. كل الناس أعناقهم مشرئبّة تنتظر مصيرها... يزداد هذيان مصطفى ويزداد العرق سيلانا من جبهته وعنقه وسائر جسده كأنه البحر يبلّل ثيابه حتى يصل إلى التربة المنبطح فوقها.

مصطفى أمام الصّراط جاحظ العينين لهول ما يرى.. أمم مختلفة تمرّ على خيط رقيق أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف... وسرعة الناس عليه بقدر أعمالهم.. فالمؤمن كالطرف

والبرق وكالريح وكأجاويد الخيل يمرّ.

على الصّراط خطا طيف مأمورة.. فمن الناس من ينجوا ومنهم من يخدش ومنهم من يسقط في الجحيم.

مصطفى ينظر إلى أعلى.. ها هي قوافل من البشر تمرّ كلمح البصر.. قيل له هؤلاء هم الشهداء لا يحاسبون ولا يعاقبون.. رائحتهم مسك ودمهم مسك.. ها هو الأمير عبد القادر ماسك بناصية جواده يتبعه الناصر بن شهرة وعمر المختار والإمام بن باديس.. البشير الإبراهيمي وغيرهم كثير.. يعرف بعضهم ولا يعرف البعض الآخر.

ينظر مصطفى يمينا وشمالا يجد جموعا غفيرة تنتظر مصيرها المحتوم الجنّة أو النار.. هنا ميزان العدالة الربّانية.. كل الأعمال تعرض بميزان... من يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره... هنا تمرّ مجموعة من الفرسان ملثّمين على مهاريهم البيضاء.. يفتح لهم باب الجنّة ويدخلون يسأل مصطفى عنهم فيجدهم شهداء ثورة الشعانبة التي وقعت في الصحراء الجزائرية... مصطفى يشعر بالخوف لمّا رأى تلك الكلاليب.. بدأت تشتغل وتتحرّك.. هناك من تجرحه وهناك من تسقطه إلى الجحيم.

مصطفى يمدّ بصره لكلّ من اجتاز هذا الصراط ها هي زوجته "سارة" كبدر ليلة تمامه تمرّ مسرعة وتستطيع اجتياز تلك الكلاليب وتصل إلى باب الجنّة ويفتح لها الباب لتدخل... هنا يصرخ مصطفى ويصيح يا سارة يا سارة أغيثيني.. أغيثيني ولكن ما من أحد يسمع أو يجيب.

هنا يشتدّ الحرّ ووهج النّار يرتفع، الناس غرقى في عرقها تسبح فيه كالبحر.. هناك من يصل إلى كعبيه وهناك من يصل إلى ركبتيه وهناك من يصل إلى خاصرته والبعض غرقى حتى الأذنين.. يشتدّ هول هذا الصّراط.. هذا يوم القارعة يوم الحساب والعقاب... مصطفى يلتمس المغفرة والرحمة. وهل تنفع في مثل هذا ليوم شفاعة الشافعين... يستمرّ المرور على هذا الخيط الرقيق الذي يوصل إلى الجنّة... يذعر مصطفى لهول ما يرى من عذاب.. فالذين يسقطون في الجحيم أكثر من الذين يدخلون الجنّة... حتى أن مصطفى شعر بجدال وخصام بين الجنّة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين وقالت الجنّة: مالي لا يدخلني إلاّ ضعاف الناس... قال الله تبارك وتعالى للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار: إنّما أنت عذاب.. أعذّب بك من أشاء من عبادي... مصطفى يقول للجنّة: أنا من عبادك المستضعفين

الذين لا حول لهم ولا قوة.. افتحي أبوابك واحتضنيني.. ولكن مشيئة اللّه جعلت مصطفى مازال ينتظر... مازال خطّ الاجتياز متواصلا... هناك من يمشي معتدلا وهناك من يتعثّر ويزحف.. مصطفى لفت انتباهه رجل يعرفه استطاع المرور وتجاوز الكلاليب حتى وصل إلى الباب الخشبي الأخضر... تأمّله مصطفى عن كثب.. إنّه الشاذلي بن جديد رئيس الجزائر.. يسأل مصطفى عن سبب دخوله الجنّة وهو يرى الملوك والجبابرة يسقطون في الجحيم الواحد تلو الآخر فقيل له: غفرت له جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية التي أنشأها في مدينة قسنطينة وغفر له تكريمه للعلماء الأفاضل أمثال الإمام الغزالي الذي ذكره بخير.. وغفر له لينه وتسامحه مع شعبه ورحمته بهم... وغفر له حرّية الرأي والكلمة التي أتاحها للمواطن المسلم في الجزائر.

مصطفى يتأمّل القادم الثاني إنّه بشّار الأسد... يا له من شاب وسيم.. يمرّ على الصراط في هدوء وسلام.. مصطفى يسأل عن السبب فقيل له: هذا الرجل ارتبط بهويّته وجذوره في وقت تنكّر فيه الجميع لأصولهم... هو الذي قال: من لا جذور له ولا هويّة.. لا بقاء له ولا وجود.. هذه الكلمة غفرت لهذا الرجل وأدخلته الجنّة.

مصطفى يتأمّل رجلا ثالثا.. يقف ويسقط ويصرخ أحيانا.. يزحف بصعوبة.. وصلت إليه تلك الخطاط يف وجرحته على مستوى الأطراف والعنق.. لكنّه مرّ يزحف حتى وصل إلى باب الجنّة وبقي ينتظر مع المنتظرين.

سأل عنه مصطفى فقيل له هو "صدام حسين "فسأل عن سبب انتظاره ولم لم يدخل الجنّة بعد... فأجابه أحد حرّاس خزائن الجنّة إنّ له حسابا ودينا مع بعض إخوانه من بني جلدته وهو الشعب الكويتي الذي غزاه في عقر داره بدون سبب يذكر وإخوانه من الإيرانيين الذين تشبّثوا بدينهم الإسلام فأعلنها حربا ضدّهم دامت سبع سنين أو أكثر.. فها هو حبس على قنطرة بين الجنّة والنّار فيقتصّ الله لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذّبوا ونقّوا أذن لهم في دخول الجنّة.

قال مصطفى في نفسه: إذن سيدخل الجنّة بعد أن يأخذ جزاءه ويدفع ثمن أعماله... ثم تذكّر مصطفى أحد الحسنات الجليلة التي تحسب لهذا الرجل وهو وقوفه مع الشعب الفلسطيني المظلوم ووقفته الشجاعة أمام اليهود الصهاينة في وقت هرول فيه حكّام العرب إلى تقبيل أيديهم وأرجلهم والموافقة على العهود والمواثيق في حين يقتل الشعب الفلسطيني

بدون سبب يذكر وتنتهك القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

مصطفى يحضره مقطع من إحدى خطب هذا الرئيس يقول فيها "ربّما أنكسر لكن لن أنبطح"... تريّث ثم قال: ربّما هذه الكلمة غفرت لهذا الرجل... يرفع مصطفى رأسه.. يشعر بلهب النار ازداد.. رائحة الجحيم تلفح بحرّها فيتراجع قليلا إلى الوراء.. هنا يمرّ رجل فوق هذا الصراط بكلّ اعتدال حتى يصل إلى باب الجنّة فيفتح له... لم تتعرّض له تلك الكلاليب.. مصطفى يتأمّله قليلا.. نعم يتذكّره.. إنّه البشير محمد.. اسم على مسمّى من الغرب الجزائري.. أستاذ جامعي معتدل القامة يميل إلى القصر ممتلئ أبيض الوجه.. مصطفى يتذكّر حسنات هذا الرجل التي غفرت له في هذا اليوم العويص وأدخلته الجنّة.. يجده رجلا مخلصا وفيّا مع طلبته.. فتح لهم الأبواب على مصراعيها.. حماهم من تلك الذئاب المسعورة التي تتطفّل على العلم وهي بريئة منه براءة الذئب من دم يوسف.

هذا الرجل يذكره الجميع بالخير... فكان جزاءه الجنّة... هنا يكثر الزحام ويبدأ المرور جماعات وأفرادا... ولكن السقوط أكثر من المرور... هنا تمرّ قافلة من الناس تعرف بدوابّها وحميرها وبغالها وكلابها تزحف بصعوبة.. وتمشي ببطء مشي

السلحفاة... هذا المشهد أثار فضول مصطفى.. فتأمّلهم رغم الحرّ... بشر بلباس فضفاض وقبّعات بيضاء.. مرّ أغلبهم إلى الجنّة وسقط منهم القليل... عذّب من عذّب وأحرق من أحرق. لكن فاز الجميع في نهاية المطاف... سأل عنهم مصطفى فقيل له: هم بنو مزاب سكّان الجنوب الجزائري.. غفر لهم تلك الكتاتيب التي يحفّظون فيها القرآن الكريم... لكن البطء والمرور بصعوبة على الصراط يعود إلى احتكارهم للتجارة وإساءة الكيل والميزان.. لكن هذه الظاهرة تخصّ البعض فقط... يتأمّل مصطفى هؤلاء الذين سقطوا يجدهم في عذاب السّعير.. نار مشتعلة تحرق جلودهم وجباههم ثم تعاد لهم جلودا أخرى.. وهكذا هي العملية ما تكاد تنتهي حتى تعاد من جديد.

يطلبون الشفاعة من الملائكة والأنبياء والرسل.. يتّصلون بآدم عليه السلام ثم بنوح مرورا بإبراهيم وموسى وعيسى وما من أحد يستجيب لدعوتهم إلاّ الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه... فيقف الرسول الكريم بين يدي الله في خشوع وإجلال ويستجاب لدعوته فيخرجون وقد ماتوا وتفحّموا فيلقون في نهر الحياة بأفواه الجنّة فينبتون من جديد كما تنبت الحيّة.. فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ثم يدخلهم الله جلّ ثناءه الجنّة... ولم يبق في النار غير اليهود والمشركين من أهل

المجوس والكفّار والمنافقين ومن لا يوجد في قلبه ذرّة خير.

مصطفى حاول اللّحاق بسارة زوجته بعد انتظار طويل.. يبدأ في المرور... فيتدحرج وتصل إليه تلك الكلاليب فتجرحه وتخدشه فيصرخ ويصرخ ويتعالى صوته.. حتى يسمعه عباس وهو في الخيمة فيأتي إليه مسرعا يحرّكه يمنه ويسرة..... يرشّ عليه بعض الماء.. هنا يستفيق مصطفى من حلمه المزعج ويقف منتصبا وهو يسأل أين نحن.. أين نحن فيردّ عباس: نحن في واد "بالقبور" على مقربة من مدينة.. ورقلة.. انهض يا رجل ومسكه من يده وسار به نحو الخيمة... هنا وجد الطيب وعبد الجليل والرجل البدوي صاحب الخيمة في انتظاره.

قدّم لنا العشاء خبزه من الملّة وصحن من السمن مع قدح من حليب الإبل.

تفقّدت حيدر وسوزان.. أين هما.. خرجت أقتفي أثرهما.. ناديت وما من مجيب... أشعلت عود ثقاب ثم أتبعته بآخر ولا فائدة... تذكّرت تلك الصخرة.. اتّجهت إليها أركض حتى شعرت بصوته وحركته.. هنا رفعت رأسي... يا له من مشهد غريب!!

سوزان شبه عارية جالسة على تلك الصخرة منحنية قليلا بجذعها وحيدر يداعب شعرها ونهديها وهي تقول له: أقتلني على مهل كي أقوى. أحبّك أكثر مما قلت قبل الرحيل الكبير.. احبّك.. لا شيء يوجعني.. لا الرمح.. لا النبل ولا السيف ولا الماء... حيدر يردّ: أنا ذكر الحمام يئنّ في أنثى الحمام.. نامي على ظلّ رمحي كي تطيري حمامة تجيب سوزان وهي تتألّم.. يا فارسي الشجاع.. نروي شطآننا من ماء نافورتك.. لا تبالي سر فوق البلاط المبلّل بالماء وأعلنها حربا يا حيدرة.. لا بدّ من فارس فوق ساحات هذا الصهيل.. هيّا أكسر الدائرة وتذكّر أن سوزان سترحل بعد ساعات وتترك ظلّها مع الصحراء خلف البحر... أحتسي شاي المساء وأعلن طبولك... فالطبول هي الطبول والحرب هي مهنتك.. حيدر يمسكها بعنف.. يقبّلها ويعلنها حربا لا هوادة فيها.

ها هو الرمح يضرب بين البراري وخوخ السهول... حيدر يقول سنعرف ما صنع الرمح ثم نستعمل السيف.. يجلس فوق الرخام الأنثوي.. يعانق برج العاج.. يهزّ الغصون ليسمع نبض الهواء... وتشتعل العواصف والسيول... لقد اجتاحها.. لبسها فكّكها إلى قطع.. كان لها ثوبا وكانت هي الفاكهة والعسل الملّح والندى والزنجبيل... وبقي الصهيل متواصلا حتى حقّق

طقوس العبادة عند الينابيع وأروى حديقته ونامت موجة القمح النبيل على تنفسها البطيء... هنا وقفت سوزان وقبّلته قائلة له: انتهى زمن الحرب يا حيدرة هيا نرحل.. مسكته وجاءت به نحو الخيمة..

كانت كأقحوانه.. كحبّة برتقال.. حين تعانق حيدر ويلتحم الجسد بالجسد.. تشعر أن الشرق التحم مع الغرب في جوهر واحد... لمّا شعرت بخشخشة حيدر وحركته.. سارعت إلى الخيمة انتظر مجيئهما.. ها هو حيدر بجوار سوزان يسلّمان ثم يجلسان.. يقدّم لهما الحليب والخبز والسمن... عباس يعاتب حيدر على هذا التأخّر... سوزان تتنفّس بصعوبة بالغة حتى كأن التعب بلغ منها مبلغا عظيما اعتصر وجهها فظهرت كحبّة طماطم يكاد يخرج منها الدم.. كانت فاتنة وجميلة... مصطفى مازال يهذي ويتمتم "سارة" زنت وتفحّشت ثم تدخل الجنّة وأنا أبقى انتظر.. أين عدلك يا ربّ... ثم يتعوّذ من الشيطان الرجيم ويستغفر ويقول: هذه أضغاث أحلام لا تخضع للحقيقة "سارة" ستأخذ جزاءها.. أباغتها واقتلها مع الصعلوك سالم... يتفقّد خنجره الذي أخذه من الرجل التارقي "إينازم" يشدّ على مقبضه... كان الليل آخره.. شعرنا بالتعب.. كل واحد أخذ موضعا ونام... أنا انبطحت خارج

الخيمة على تلك الرمال الرطبة ونمت.. سوزان نامت عند مدخل الخيمة مستخدمة مضربا من القماش الخفيف الأبيض كانت تحمله ضمن متاعها... عبد الجليل والطيب ومصطفى ناموا في الجهة الجنوبية من الخيمة... الرجل البدوي ظلّ يقظا يتفقّد غنمه من الذئب الذي كثر في تلك المنطقة النائية... حيدر لم يتخذْ مكانا محدّدا وإنّما يتنقّل بين مكان ومكان... كل مرّة ينهض مدّعيا أن الناموس والحشرات لسعته ويختار مكانا آخر أقرب إلى مكان سوزان... كنت يقظا أتتبّعه وألاحظه تحت ضوء القمر الذي بدا ساطعا.. كان ينتقل من مكان إلى مكان حتى أستقرّ في موضع لا يبعد إلاّ بأمتار من مكان سوزان.. هبّت نسمة من جهة الغرب باردة أثلجت صدورنا وأراحتنا من حرّ الصحراء.. كانت السحب تهيم بطيئة تاركة ظلالها على بعض النجوم التي تظهر وتختفي فجأة.. بدا الظلام يشتدّ ويفرض إيقاع ظلمته على نفوسنا.. وكانت سوزان المرأة الوحيدة بيننا.. هذه السحب القليلة أخفت ضوء القمر..شعرت بوحشة مخيفة.........................

أصغيت السمع.. ضبيح الثعالب والأرانب لا ينقطع.. عواء الذئاب يتصاعد من جهة الشرق.. نباح الكلاب يزداد قوة.. ثغاء الغنم يتداخل مع هدير الإبل.... صداح الطيور يظهر ويختفي..

طنين الناموس والبعوض لا ينقطع.. يا إلهي أغمضت عينيّ لعليّ أنام.. طافت في مخيلتي خواطر كثيرة اغلبها في الصغر حين كنت طفلا يافعا لم يتجاوز السادسة من عمري... أتذكّر ذلك الفرس الرّمادي الذي اشتراه والدي من مدينة تيارت.. في ناصيته علامة بيضاء.. كان أبى يستبشر بهذه العلامة خيرا... في أحد أيام الصيف القائضة... أثناء غيابي والدي أمرتني أمي أن أذهب بهذا الفرس إلى غدير ماء ليشرب ويمرح قليلا... فذهبت وبعد أن ارتوى الحصان جررته إلى صخرة هناك وامتطيت صهوته... لا أنسى ذلك اليوم.. لكن الشيء الذي أتذكّره جيدا أن الحصان شعر بخفّة وزني فانطلق كالبرق الخاطف في اتجاه المنزل.. أمّا أنا فكنت كالرّيشة في مهبّ الريح... الذي اعرفه أني تشبّثت جيدا برقبة الحصان.. أمّا أرجلي فتارة تذهب إلى اليمين وتارة إلى الشمال... لكن الغريب أن أمي كانت خارج المنزل تشاهدني وهي تزغرد مستبشرة بولدها الذي أصبح فارسا فجأة.. كان الحصان كالسهم حتى وصل إلى مربطه أمام البيت.. هنا توقّف فجأة ممدّدا قوائمه الأمامية خافضا رأسه.. فطرت عن صهوته وسقطت على الأحجار فشجّ رأسي وكسر عظم يدي اليسرى... لكن الشيء الذى مازلت أتذكّره هو صراخ أمي بعد ذلك وبكائها الشديد.

جزاها الله خيرا على تعبها المضني في تربيتي ورعايتي........
استعدت كلام عباس عن هذه الانتخابات التشريعية وما تأخذه من أموال طائلة تكفي لمعيشة شعب بحاله..

انقلبت على ظهري.. زالت بعض السّحب التي تظلّل القمر أصبحت الرؤية واضحة.. انتصبت يمينا وشمالا. لا أثر لحيدرة.. أين هوّ... فكّرت قليلا ثم انتبهت إلى مكان تواجد سوزان... يا إلهي ها هو القماش الخفيف الأبيض يرتفع وينخفض.. نظرت تحت... نظرت فوق.. نظرت حولي... فلم أجد أفقا لأنظر سوى الاقتراب منهما.. سوزان أزالت ذلك الغطاء... ظهر شعرها المبعثر الذي يذهب شرقا وغربا..أعلى وأسفل.

حيدر يشدّ على قلعته من جديد.. يأكل من شجر اللوز ويمرّر لسانه على الليمون والخوخ حتى يصل إلى جوز الهند.. يشجّه برمحه، يغوص في البحر أكثر... يسبح.. يلج الحوض مرّة ثانية، يطفو ثمّ يقول: اصرخي يا سوزان.. الطوفان يأتي، صحرائي تنمو بداخلي.. يرفع فخذيها راية.. تئنّ تحت نبله وسيفه.. يجلد.. يضرب بالسيّاط... نار أنثى تشتعل.. تحت نهديها صليل.. يهزّها بعنف، ينبجس الماء.. يملأ البراري والأدغال. يحتضن سوزان.. يجد فجوة يغوص فيها من

جديد.. تستيقظ شعوب اللهيب والجمر.. الشمس عاشقة سوداء لا تعرف الراحة أبدا... حيدر يمشي إلى الذّات في الآخرين.. وهو يعرف أنّه يخسر الذّات والآخرين... حيدر يا سادتي إلتهم سوزان.. أكلها.. ضمّدها وأنزلها.. غسلها ورفعها.. اجتاحها.. لبسها.. حتى سقطت سكرا وهي تقول له.. كفى يا طائري.. انتهى زمن المزاح.. حيدر يربّت على جسدها ويقول: نامي يا عصفورتي تحت يدي.. غدا زمن الرحيل ويهدأ الصّهيل... غدا سأسقط من نجمة في السماء إلى خيمة في الطريق.. سوزان بكت لأوّل مرّة... حيدر يمسح دموعها ويقول لها: كيف يبكي شجر التّوت والماء حوله والبحر بقربه.. أحبّك يا حبيبتي فلا البحر يبعدني عنك ولا الماء والطوفان... كانت الصحراء بحرا وسوف تعود بحرا ونذوب في جوهر واحد.. ستلتحم الأجساد ولا يهمّ الأرواح.. يا حبيبتي سنمدّ الأنابيب لنرتوي.. فلا ظمأ بعد الآن... لا ظمأ بعد الآن.. يعود "حيدرة" إلى مكانه.. يستلقي على ظهره.. تطوف في مخيّلته خواطر كثيرة... يتأمّل حياته في فيافي الصحراء ورمالها وتضاريسها القاسية.. فتظهر له سراب في سراب.. يتذكّر "تامت" التي تركها في جانت.. تطوف أمامه صورة "عائشة" التي تركها تنتظر ثم يتوقف عند

"سوزان" التي هي على أهبة الرحيل.

يتساءل ويقارن بينهنّ... يقول في قراره نفسه "سوزان محرابي الذي أتعبّد فيه.. منحتني الحياة والثّقة بالنفس..

سوزان هي الربيع الذي جاء بلا مطر فأنبت الزهر والثّمر..

سوزان أضاءت ملامح الأرض الخراب في صحرائنا.. أنارت الصحاري والبراري.. كيف لي أن أنسى سوزان يقول حيدرة.

ثم يتمتم.. يتمنّى من هذه الحدود التي تفصل بين هذه الدول أن تسقط ليتوحّد العالم في جوهر واحد وهو الجوهر الإنساني.. يغمض عينيه ويفتحهما فلا يجد في مخيّلته إلاّ جسد سوزان ومع هذا الجسد يشعر انه يفتح مدنا عربية في قارّة أوربا المسيحية.. تعود به الذّاكرة إلى عائشة ثم يقول: عائشة ترويني..أشعر بالحبّ والأشواق يسريان بداخلي.. مع عائشة يجري الدّم الحارّ في شراييني.

حيدر يحبس أنفاسه.. يتريّث قليلا، يتأمّل.. يحلم ثم يقول: عائشة لا أستطيع الاستغناء عنها فهي الحاضن لذاتي وهي بيتي.. هي الهجير والغيوم السكون والنجوم. هي الشمس والفلاة والغيم والسماء.. أنا في حاجة إليها مثلما هي في حاجة إليّ.

عائشة يا إخواني نهر بلا مصبّ.. نار ملجومة... ومصبّ هذا النهر هو أنا ومن يفتح لجام النار ويفكّ أسرها ويطلق عنانها هو أنا يا سادتي "حيدر عبد السلام".

يتذكّر فجأة "تامت" المرأة التارقية التي تركها في جانت يقول حيدر: "تامت" مني وأنا منها.. أشعر وأنا معها بدفء الحياة، حين تلتحم أجسادنا وتلتصق أنفاسنا... أعرف أن الماء من الجحيم يفور وطوفانه يطهّر الأرض والإنسان حين أغشاها يقذف البركان نيرانه وترسل الصحراء طوفانها ويزداد شيطاني تمرّدا وعصيانا فأتغلغل بين الغصن والغصن.. أسوقها بسيفي ودمي.. فيشتعل اللهب ماردا يخرج من نار.

"تامت" لا أستطيع الاستغناء عنها فهي دمي وناري وصحرائي... حيدر يتأمّل... يعود مرة ثانية إلى سوزان يتخيلها يشعر بصقيعها وثلجها ثم يقول.. سوزان بحر مروّض.. شطآن بوديانها وسهولها.. أتدحرج على ضفافها.. أشرب من ينابيعها... أطفئ نار الصحاري ولهب الجحيم.. لا أستطيع الاستغناء عنها... ثم يقول: ماذا لو كانت عائشة و"تامت" وسوزان جسدا واحدا وفضاء واحدا وجوهرا واحدا.. أتمتّع بدفئه وحرّه وبرده وبحره وليمونه وتوته وناره وحقوله وأدغاله ووهاده.. يا إلهي لكانت الصحراء جنّة... تجد

الشمس مثلما تجد المطر.. وتجد البحر مثلما تجد الصحاري والبراري.. فلنمدّ الأنابيب ولنلتحم.. لا فراق بعد الآن ولا وداع.. ألم يقولوا أن العالم أصبح قرية واحدة.. فينبغي لنا أيضا أن نكون جسدا واحدا وأرضا واحدة... لم يبق من الليل إلاّ ثلثه الأخير.. بدأت النجوم تتضاءل في جوف السماء وازدادت حركة الغنم ودويّها.. أسمع خروفا يصيح بقوّة..يظهر انه فقد أمّه ...وبينما أنا مغمور في خواطري انفجر دويّ مهول.. طلقة نارية تعقبها أخرى... نهضت منتصبا مذعورا.. ها هو الرجل البدوي يجرّ ذئبا سمينا والبندقية على كتفيه وهو يضحك قائلا: أكل غنمنا فلنأكله هنيئا.

شمّر على ساعديه وبدأ في سلخه بعد أن ذبحه... هنا نهض عباس وعبد الجليل والطيب ومصطفى وسوزان والتفّوا حول الرجل.

بعد أن انتهى الرجل من سلخه قطع رأسه وأطرافه ورماهما بعيدا واحتفظ بالجثّة ووضع عليها بعض الثوم والبصل والتوابل ورشّها بالملح ثم أعادها ثانية في جلدها وربطها كالكرة وغمسها في الرمل ووضع فوقها التراب... ثم جاء بالحطب وأعواد الأشجار وبعض الحلفاء الجافّة وأشعل النار وتركها... سأله الطيب وعبد الجليل: ألم يكن أكل الذئب حرام في ديننا...

أجابه الرجل البدوي: "حرّمت عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير" ما عدا ذلك فهو حلال طيّب.. خاصّة مع ذئب سمين مثل هذا.

سأله عباس بعد ذلك عن طريقة الطهي العجيبة هذه.. فأجابه الرجل وكلّه ثقة بما يقول.. أن اللحم ينضج داخل جلده تحت وطأة الرمل أحسن وأفضل ويصير ذوقه أطيب.. سوزان أعجبها ما ترى من عمل غريب لم تحلم به طول حياتها فكانت تضحك تارة وترقص أخرى... حيدر أعجبته بندقية الرجل.. حملها.. تأمّلها وكان يصوّب بها أحيانا.. ثم بدا يرقص بها على غرار رقصة سوزان.. يقفز تارة وينحني أخرى.. يرمي البندقية إلى الأعلى ثم يمسكها... الرجل البدوي ينظر إليهما ويضحك.. لو تأمّلته لوجدته رجلا وسيما أسمر له شاربان رقيقين ولحية كثّة لم تذق موس الحلاقة منذ زمن.. يلبس لباسا أزرق فضفاضا وسروالا واسعا منتفخا في وسطه أقرب إلى سروال اللوبيا مثلما يسمّيه سكان الجزائر العاصمة... ويطلق عليه سكان هذه المنطقة الصحراوية سروال "عربي" أي عربي لأصل... سألنا عن نسبه فقيل من "الشعانبة" يسمّى علاّل وكان حيدر يناديه بهذا الاسم.

حيدر رغب في الصيّد واستشار علاّل في ذلك.. فوجد

الرجل استحسانا لهذا الأمر.. لكنه قال:

نحتاج إلى ضوء سيارة فأرض الظّباء والغزال بعيدة على شساعة هذا الوادي

حيدر أسرع إلى سيارته.. شغّل محركها وأضاء أنوارها... ها هو مصطفى بجوار السيارة مستلق على ظهره وهو شبه نائم.. تركناه على حاله... الطيب وعبد الجليل آثرا البقاء في الخيمة. أمّا حيدر فركب معنا سيارة وركب بجواره علاّل ببندقيته وفي الخلف ركب عباس وسوزان.

علاّل أمر حيدر أن يوّجه أنوار السيارة فوق تلك الوديان والأدغال وأن يسير بهدوء.. هاهي أرنب تركض أمامنا.. تنهض واحدة أخرى.. هاهي مجموعة تجري على ضفاف الوادي ثم تختفي.. لكن علاّل لا يبالي بتلك الأرانب ولا تمثّل له صيدا وفيرا.. مشينا برهة من الزمن.. هاهو الثعلب الماكر يلوّح بذنبه يمنة ويسرة وهو يركض ولسانه متدلّي... لأوّل مرّة أرى ضبّا زاحفا مكشّرا على أنيابه.. حيدر تفاداه هذه المرّة متجنّبا قتله..يظهر أن الزواحف لا تخرج إلاّ ليلا.

نظرت إلى اليمين فلم أر إلاّ الظلام الحالك.. لكن بين الفينة والأخرى أبصر ومضة من نار تظهر وتختفي.. أمرت حيدر..

فانحنى بسيارته موجّها أضواءها إلى تلك الجهة.

اقتربنا أكثر ويا للمفاجأة: إنّها أفعى سامّة تمشي مسرعة فيحتكّ جلدها محدثا تلك الومضة توقّفت السيارة ونزل "علاّل" بعصاه فقتلها ثم واصلنا المسير.. لأوّل مرّة أشعر بتلك الوهاد والأدغال... كانت السيارة ترتفع وتنخفض.. علاّل مسك بندقيته وخرج بنصفه من نافذة السيارة.. نظرت أمامي يا للمفاجأة.. سرب من الغزلان والظّباء متّجها نحو ذلك المرتفع يجري بسرعة مذهلة كالبرق.

حيدر يزيد في السرعة.. نرتفع وننخفض.. تزداد سرعة السيارة أكثر.

تبدأ تلك الغزلان تظهر وتختفي ومع سرعة السيارة لمست أن المسافة الفاصلة بدأت تتقلّص هاهما أشاهدهما.. ظبي سمين بقرون طويلة في مقدّمة القطيع تعقبه مجموعة أخري فيها الصغير والكبير.. لا تسمع في هذه اللحظة إلاّ صليل الأقدام تضرب في هذه الشّعاب... حيدر زاد السّرعة أكثر.. أخذته نشوة الصّيد والفرحة بتلك الظّباء فأخذ يسابقها حتى اقترب منها أكثر فأكثر.

كانت السيارة تعلو وتنزل، سوزان تصرخ وتشهق أحيانا من

فرط تلك السّرعة المذهلة.. ترتفع إلى الأعلى وتسقط ثانية، لم تجد من ينجدها إلاّ عباس فتشبّثت به عباس يغتنم هذه الفرصة الذهبية التي كثيرا ما انتظرها، فحيدر الذي يخاف منه مشغول بمطاردة الغزلان والسيارة في سرعتها القصوى وليس لأيّ أحد القدرة على الالتفات أو النظر.

عباس يمسك سوزان من خاصرتها.. يشدّ بقوّة.. أحسّت به سوزان، فأفرجت أطراف يديها وساقيها ومسكت به.

عباس يندسّ بين نهديها.. يشعر بذلك العمق والاتّساع الذي يفوق المحيط بل يحتويه.. هاهو يحوم بيده حول المرفأ الآمن.. يحرّك يده بين تلك المسافات فلا يجد عوائق تمنعه وظلّ يتنقّل، يحاول الغوص ليكتشف كنه هذا الجسد ويبحر في أعماقه بحثا عن شيء جديد يشدّه.. كان يشمّ بأنفه ذلك الشّعر الطويل.. يستنشق رائحة البحر.

هاهي الظّباء في الأبعاد تلوّح.. عباس لا يبالي بها فدمه سكران في أوردته.. شعر بنشوة.. سحابة من الورد يزجيها العطر.. قبّل سوزان ثم أمطرها بوابل من القبلات الحارّة، لكنّه شعر بتساقط الثلج في شدّة الحرّ.. شدّ على ثدييها برفق ثم بسط يده على بطنها هنا ارتاح أكثر.. شعر بها واحة في الهجير يستروح بها من عناء الحياة.

انزلقت يده أسفل الصرة.. أحسّ بذلك الجدول المحاط بالعشب.

قبّلها ثانية وقال لها: أنا في ملعبك الآن تماسكي سأشدّ الرّحال إلى الأعماق حيث الأصداف والجواهر.

جسد سوزان كرائحة الياسمين التي تشمّها كل الأنوف.. لا تمانع حين تشعر باللذّة والمتعة.

عباس أيضا يحبّ اللذّة ومستعدّ أن يترك وطنه ويجري وراء الدفء والغذاء ويجني الفاكهة والمتعة.. فلا يمكن أن يترك سوزان تضيع منه هكذا مثل الطيور المهاجرة.

أمسك بها أكثر.. هنا أحجار ياقوت وكنز لآلئ مهمل.. أنزل فاه محاولا التهام ما يجده.

ترتفع السيارة وتنخفض.. حيدر يصرخ في وجه علاّل أطلق النار أطلق... كاد جسد سوزان يفرّ من حضن عباس، فمسكه من جديد.. قلبها على بطنها.. وضع يده على كفليها.. أصبحت كسمكة خارجة من البحر لتوّها.. عباس شعر بعواصف شهوته الملجّمة تنطلق.. هنا استطاع أن يسكب رغوته وزوابعه واستفاق بعد ذلك من غفوته وشعر بالسيارة سابحة مغرّدة وراء ذلك القطيع من الغزلان الذي بدأ يقترب أكثر

فأكثر.. يصوّب "علاّل" بندقيته ويطلق النار.. يضرب الأوّل على مستوى الصدر يسقط ويتدحرج.. يردفه بطلقة ثانية يصيب على إثرها الثاني فيسقط على بعد أمتار من الأوّل.

تتوقّف السيارة.. ينزل علاّل مسرعا فيذبحهما على عجل ويضعهما في السيارة ونعود من حيث أتينا... وقفنا بجوار الخيمة.. عبد الجليل يغصّ في نوم عميق والطيب كذلك.

أمّا مصطفى فمازال مستلقيا على ظهره فاتحا فمه ينظر إلى السماء.. اقتربت منه.. شعرت بأنفاسه بطيئة.. مصطفى يا سادتي في عوالم مختلفة.. جسده موجود معنا لكن روحه تسبح في فضاءات بعيدة بعيدة.. إنه الآن مع زوجته سارة.. يتذكّرها طفلة في المدرسة... كان يذهب معها كل صباح ومساء.. أحبّها منذ الصّغر. كان يؤثرها بأعزّ ما يملك قطعة الجبن والخبز وحبّة البرتقال التي تعطى له كوجبة في المدرسة أثناء فسحة الظهر.. كان يهدي كل هذا لسارة ولا يبالي... كان حبّا طارا شريفا جمعهما منذ الصغر.. دخلا إلى الجامعة معا وتوظّفا معا في الشركة الوطنية للسياحة.. مصطفى يمرّ على مشهد مثير.. يتذكّر ذلك الشابّ الأسمر الذي وجده رفقة سارة في مكان منعزل بعيدا عن المدينة وقدّمته له وقالت: إنه ابن خالي.. مصطفى لا يعرف أقارب سارة ثمّ بعد معرفته لهم لم يتوقّف

على ذلك الوجه الذي رآه يوما ما.. مصطفى يتريّث.. تزداد نبضات قلبه.

هاهو يتذكّر مشهدا آخر مريب حين وجد سارة في حديقة الحيوانات رفقة رجل غريب لا يعرفه.. لم ينس ذلك الرجل الوسيم الأشقر الذي يمسك سارة ويضحك معها تحت شجره وارفة الظلّ.. مصطفى سأل سارة حين ذاك فقالت خالي!

مصطفى تعود به الذّاكرة إلى الوراء يتذكّر أخوالها بعد ذلك واحدا واحدا ولم ير ذلك الرجل.. مصطفى ينتفض ويقول: يا إلهي منذ ذلك الوقت وهي تخونني في عرضي وشرفي وأنا أمشي وراءها كالثور لا علم لي ولا خبر.

مصطفى ينتصب واقفا ويصرخ... السيارة.. هيّا نرحل.. هيّا نرحل كان حيدر قد وصل.. نزل الرجل البدوي "علاّل" وهو محمّلا بتلك الظّباء ثم نزل عباس تلتهما سوزان بعد ذالك... علاّل قام بسلخ تلك الظّباء ثم نثر عليهما الكثير من الملح ونشرهما في حبل.. سألته فقال: تصبح قدّيدا نتزوّد بها للأيام القادمة كانت خيوط الفجر الأوّلى قد ظهرت في الآفاق.. عباس شعر بالجوع.. سأل علال عن خبز أو ملّة... علاّل يضع يده على رأسه.. يتذكّر لحمه الذي وضعه في جلده تحت الرمل... ذهب إليه مسرعا.. نبش الرمل ثم أخرج ذلك الجلد المشدود.

نفض عنه التراب وفتحه فخرجت منه رائحة لذيذة من جرّاء الثوم والبصل واللحم والتوابل لم انس تلك الرائحة التي فتحت شهيّتي للأكل... علاّل يستخرج ذلك اللحم بمرقه ويصبّه في صحن كبير.. تفوح تلك الرائحة من جديد تملأ أنوفنا وأذواقنا... نجتمع حول الصحن علال.. عباس.. حيدر... وسوزان.. مصطفى جاء يصرخ ويهذي فشدّته تلك الرائحة فجلس حيث جلسنا.

بدأنا نأكل بنهم.. تحمل قطعة اللحم فيسقط اللحم ويبقى العظم من فرط حرّ الرمل وقوته.. فتجرّدنا ولا نبسنا حتى استوفينا الصّحن ولم يبق منه إلاّ القليل للطيب وعبد الجليل.

هنا نهض علاّل ووضع إبريق الشاي على الجمر.. رفعت رأسي إلى السماء.. قد زالت أغلب النجوم.. وظهر غبش الفجر... أخذت كأسا من الشاي.. وبدأت أشربه يبطئ... حيدر يمصّ الشاي مصّا له زئير.. يأخذ منه جرعة ويعطي لسوزان الجرعة الثانية وهكذا.

ثم أخذ سوزان وقبّلها ماسكا بخاصرتها وهو يقول: كلّما أكلت اللّحم أشعر أن ماردا بداخلي ينهض من جديد.. ثم مسكها من يدها وبدأ يركض معها حتى وصلا إلى السيارة حيث قضى وطره منها.

رأيته بعد ذلك والعرق يتصبّب من رقبته وهو يقول لعلال: أنا صيّاد ماهر مثلك. أصوّب ولا أخطئ الهدف.. في الأغوار نقرت بسيفي ورمحي... أكلت عشب غزالتي وحدي.. فأنا أعرف أني أودّع آخر شمس مصطفى أصبح لا يطيق صبرا... وقد وقع في خصام مع حيدر بسبب بطئه وتثاقله هنا ركب حيدر السيارة وركبت سوزان بجواره وركبنا نحن في الخلف.. نودّع علاّل وخيمته وتنطلق الرحلة.. كانت لا تفصلنا عن مدينة ورقلة غير بضعة أميال نظرت إلى سوزان.. كانت مثل السمكة المعتصرة.. علامات حمراء على وجنتيها وخدّيها وعنقها حتى فخذيها لم ينجوا من هذا الاحمرار.

ظهرت لي فجوة بين نهديها فلمست تلك البقع الحمراء.. حيدر يا سادتي وحش لا يترك قطعة من هذا الجسد البضّ إلاّ لثمه وأكله وعضّه حيدر.. اعرفه يسمّي هذه الأشياء بغير مسمّياتها مثل.. التوقيع الجميل... أو النقر الرشيق.. فكثيرا ما يتغنّى بهذه العبارات وكثيرا ما يقول لي حين يحنّ إلى سوزان... يريد مصاحبتها "ها أنا أركض لأسمع صوت الضحايا وحدي على شفة البحر" فحسب علمنا به أنه ينتقم ويثأر.. وصوت الضحايا هو صوت سوزان حين تتألم وتقول له أقتلني.. أوقف ألمي.. أو يقول لعباس.. سأروي حديقتي...

ظهرت الشمس.. ها هي مدينة ورقلة بنخيلها وعمرانها واتّساعها... ها هي سبخة الملح تلمع كالمرجان كان يوم حارّ قائظ من أيام الصيف.. دخلنا المدينة بهدوء.. عباس ينزل عند أوّل محلّ لبيع عتاد الفلاحة والري وودّعنا... عبد الجليل يأمر حيدر بالتوجّه إلى الجامعة لأنّ له بعض الكتب والمخطوطات يريد اقتنائها.

مصطفى حالته ازدادت سوءا بعد سوء.. أصبح يهذي ويتعجّل المسير.. تارة ينتصب بقامته فيضربه سقف السيارة وأحيانا يخرج بجذعه من نافذة السيارة وأحيانا يضرب بيديه على رأسه... مصطفى يا سادتي صورة سارة لا تفارقه.. يتخيّلها أفعى مخادعة.. خدعته في الصّغر وضحكت عليه في الكبر.. تعاوده الذكريات المليئة بالكبت والبؤس.. يتخيّل جسدها يمتلئ ويلتفّ ويستدير ويكاد ينفجر وهي تضحك وتمزح بين أحضان "سالم" ذلك الصعلوك الذي خدعه في عرضه وشرفه.. مصطفى يتخيّل تلك الأصوات المهموسة كالآهات.. كل هذا في بيته وفي سريره.

تزداد نبضات قلبه.. يشعر بالاختناق.. يطلب كوب ماء... يشرب منه جرعات متتالية ثم يعود إلى هدوءه بعض الشيء.

حيدر وعبد الجليل والطيب يشعرون بهذا الأرق والتعب

الذي يعاني منه مصطفى... عبد الجليل ينظر إلى مصطفى.. يشفق على حاله ويقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله إنّا لله وإنّا إليه راجعون... حيدر فكّر في اقتناص بعض الأدوية لمصطفى.. مررنا على صيدلي فمنحنا بعض المهدّئات التي تريح الأعصاب وتساعد على النوم... حيدر وضع بعض هذه الأدوية في كأس ماء ومنحها لمصطفى وفور شرب هذا الماء غاص في نوم عميق.واصلنا المسير..توقفنا عند باب الجامعة.

حيدر ينظر يمينا وشمالا ثم قال : ماذا أشاهد.. هل نحن في الشمال أم في الجنوب؟!

عمارات شاهقة البناء.. شوارع طويلة مكتظّة بالسكان.. نساء سافرات اكتفين بقطعة أو بقطعتين من القماش... موسيقى صاخبة في المقاهي.

دخلنا الجامعة.. أغلب الطلبة فتيات تضجّ أجسادهنّ أنوثة وإغراء.

الطيب يتعوّذ من الشيطان الرجيم ثم يقول: كيف يسمح لهنّ بلباس السراويل الضيّقة والمحدّدة وما يتبعها من مخازي العصر الحاضر الذي أطلقوا عليه عصر التقدّم والمدنية والرقيّ... ولست ادري هذا الرقيّ إلى أين؟ إلى الأعلى أم إلى

الأسفل... ثم يواصل.. فقدنا الروح الوطنية الطيّبة وألفنا حياة المجون والفجور أيعقل هذا يا ناس. هل نحن في بلد الإسلام أم في بلاد الكفر والطغيان؟!

يجيبه حيدر. تريّث يا سيدي.. عمر من العقد والحواجز والمتناقضات تكفي.. عمر من الكبت والظمأ كفى يا سيدي... أما يحقّ لهذه البراعم التي نضجت على عجل أن تتمتّع بالحياة وتلبس وتنزع وتمرح وتعشق ما لذّ وطاب لها.. ثم أردف يقول: متى نظلّ نغطّي على أعمالنا ورغباتنا ونكبت على إحساسنا وشعورنا.

هذا زمن الصراحة والشفافية نعرّي على أجسادنا مثلما نعرّي على أحاسيسنا ومشاعرنا.

فلنصارح ذواتنا ونكاشف عقولنا وقلوبنا.

اقتلوا المستور يا إخواني هذا زمن الظهور... أتركوا الشمس ترسل أشعّتها لنتمكّن من الرؤية ونصحّح مفاهيمنا وأفكارنا على المكشوف ليتبيّن لنا الصحّ من الخطأ.

ثلث قرن من الكبت والكذب والنفاق.. أعمينا الأبصار والعقول وقيّدنا الفكر ولجمنا الألسن على قول الحقيقة.

سوزان نادتنا أن نسرع فالوقت لا يكفي وهي تستعدّ

للرّحيل.. مشينا وراء عبد الجليل هاهي لافتة مكتوبة بالبند العريض "النحو العربي بين التيسير والتجديد" تحت رعاية الاتحاد الطلاّبي الحرّ.

قلت في نفسي وهل هؤلاء يريدون إضافة الجديد على ما وصل إليه سيبويه... هنا تذكّرت بيت للمعرّي يقول فيه :

وإنّي وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائل

مشيت قليلا... وجدت لافتة أخرى بعنوان "أيام دراسية حول جهود العلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح" يظهر أن الملتقيات الجامعية هنا تمشي مع الحملة الانتخابية.

دخلنا إلى قاعة الوئام "مدرّج ضخم يعجّ بالطلبة والطالبات" وجدنا الأستاذ يحاضر... جلسنا في الصفوف الأمامية.

لا أنكر عليكم يا سادتي أن المحاضرة أعجبتني.. فالرجل تظهر عليه علامات الوقار والاحترام.. أصغيت له أكثر.. كان يتكلّم عن "نظريته الحديثة في اللغة" سمّاها النظرية الخليلية الحديثة.. تسهّل عملية فهم اللغة وتزيل الغبار على ظاهرة النحو وتخلّصه من تلك الشوائب التي أعاقت تدريسه.. حيدر كان ينظر ولا يهمس بكلمة.. عبد الجليل والطيب يصغيان

بكلّ هدوء وصمت.. سوزان جلست مع بقية الطالبات في آخر المدرّج.. أمّا مصطفى فبقي نائما في السيارة بعد تناوله للمهدّئ.

كان الأستاذ يحاضر.. يتكلّم عن المدّة الزمنية التي قضاها في فهمه لكتاب سيبويه تطرّق إلى النموذج العاملي عند الخليل وأشار إلى مصطلح الزمرة الذي يساعد في تفسير الكثير من أسرار اللغة.. أشار إلى الفرق بين اللغة والكلام... تطرّق إلى العلامة الإعرابية التي هي قائمة بنفسها... كما تطرّق إلى النحو العبري والنحو السرياني الذي هو في الأصل مأخوذ من النحو العربي.

كانت المحاضرة ممتعة تعبّر عن مقدرة الأستاذ واطّلاعه الواسع على علوم اللغة وتمكّنه من اللغات الأجنبية الأخرى... لكن ما شدّ انتباهي قوله عن كتاب الأغاني أنه حكايات مختلقة يقول فيها صاحبها أنا أأخذ ولا عهدة لي فيما أقول... لأوّل مرّة أتبيّن هذه الحقيقة... بعد انتهاء المحاضرة جاء أصحاب الطبل والمزمار وبدءوا ينشدون قصائد في المدح.. ذكّرتني بقول أحد الشعراء المدّاحين

أنت شمس والملوك كواكب... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

الأستاذ يا إخواني تضايق من هذا الإطراء والمدح الكثير وقالها بصريح العبارة وأنا شاهد على ما يقول.. قال: يكفي يا إخواني من هذا المدح الذي يجعلني اشعر بالضيق والاختناق قالها الرجل ورحل.. جزاه الله خيرا قارب الوقت من الظهيرة.. قام حيدر ومسكني من ذراعي وخرجت.. أشرت إلى عبد الجليل والطيب فلحقا بنا.. هاهي سوزان تصل بعد ذلك.. مررنا على مطعم يبيع الوجبات الخفيفة للطلبة... تناولنا غذاءنا هناك وأخذنا وجبة معنا ملفوفة بالورقة المقوّى لمصطفى.

ركبنا السيارة.. وجدنا مصطفى مازال غاصًا في نومه... لم نوقضه وواصلنا الرحلة صوب غرداية جوهرة الواحات.

كان الوقت الظهيرة.. ازداد حرّ الشمس.. كل شيء رمادي داكن.. أرض خالية على عروشها لا إنس ولا جنّ ولا شجر ولا طيور ولا أي حركة... الطريق مستقيمة منبسطة لا تسمع شيئا في هذه الفيافي إلاّ أزيز المحرك.

حيدر قلق من قرب رحيل سوزان.. يفكّر في حاله كيف يفعل وهل يستطيع صبرا.

يضرب على يده فوق مقود السيارة. الرجل الذي أراد الثأر أصبح عاشقا محبّا.

يحدّث نفسه.. عرفت أني هلكت بعد سوزان وفقدت أغلى أمنية في حياتي.. سوزان سترحل مثل أشعة الفجر... من يفرح بحدود الصحاري وزهو الخيام غيرها.. من ينعش هذه الأرض القفراء. حيدر يضرب رأسه ثانية قائلا.. من تحلّ محلّ سوزان أعطتني الثقة بالنفس ومنحتني الأمل وحبّ الحياة يا إلهي... سوزان متمدّدة شبه نائمة... حين تنظر إليها تبدو كفراشة على بساط ابيض تبشّر بالربيع.. جالسة على مقعدها الأمامي الذي يطلّ على الشرق والغرب.

فهي مقيّدة بمناظر الشرق وصحاريه الواسعة وعاداته وتقاليده وتناقضاته وعقده ومكبوتا ته تقارن بين عباس الذي يظهر هادئا رزينا ثابتا وبين حيدر.. حائرة في أحوال الناس.. وفي نفس الوقت مشدودة إلى الغرب.. إلى بلاد البحار والمحيطات والأنهار.. ولذا فهي بين ظمأ الصحراء ومياه المحيطات.

حين تتأمّلها.. تظهر كاللؤلؤة الكريمة.. رقيقة.. جسمها مورّد تحت لهيب الشمس.. تظهر مفاتنها ومحاسنها... وزاد في هذه الفتنة ذلك العطر الذي ينبع من جسدها.

حين شعرت بالحرّ فكّت أزرار قميصها وقد نفر نهدها من قميص النوم يصرخ بالشهوة والجنس... حين تقترب منها

تشعر بالثلج والنار ممتزجين ببعضهما.

عبد الجليل شعر بهذا الصمت المطبق.. حاول أن يثير حيدر ويجعله يتكلّم.

وضع يده على كتفه قائلا: جوادك سيطير غدا ويترك فارسه الهمام يضرب في دروب الصحراء بدون وجهة محدّدة.

ابتسم حيدر.. كانت ابتسامته تنبئ عن ذلك الحزن الدفين الذي يشعر به.. ثم سأل عبد الجليل بفضول عن العمل الذي يمارسه فمنذ مدّة وهما معا لم يعرف منه شيئا اللهم إلا الاسم فقط.

أجابه عبد الجليل برغبة هذه المرّة.. أو ربّما كان يريد من حيدر أن يعرف عنه الكثير.

أنا منذ عشر سنوات أشتغل معلّما في أحد المدارس الموجودة في القرى النائية بالجنوب الجزائري.. وقد تعبت من هذا العمل ماديا ومعنويا.. إضافة إلى الصعوبات والضغوطات التي تفرض على المعلّم من جميع الجهات بدءا من مدير التربية إلى المفتّشين الذي يقومون بزيارتك أسبوعيا ويفرضون عليك الندوات الروتينية التي لا تسمن ولا تغني من جوع ويطالبونك بأمور شكلية لا تفيد التلميذ في شيء.

حيدر شدّه الفضول إلى معرفة المزيد فسأل عبد الجليل عن هذه الأشياء التي يطالب بها المفتّش مثلا ولا تنفع التلميذ؟

عبد الجليل يستنشق الهواء بجهد ثم يخرجه دفعة واحدة وهو يقول: بالله عليك أجبني بصراحة نحن نعرف أن التلميذ في بداية عهده يبدأ بتعلّم الحروف شكلها وطريقة كتابتها ثم نرتفع به إلى الإملاء وقراءة النص قراءة جيّدة وفكّ بعض العمليات الحسابية التي يحتاجها في حياته العادية كالقسمة والطرح والضرب وما إلى ذلك... لكن نحن يطالبوننا بالوثائق الكلية كالمذكّرة ودفتر القسم والتوزيع اليومي والتوزيع السنوي وكلّها جوانب شكلية بعيدة عن الميدان.

حيدر يضرب يده على مقود السيارة وهو يقول: سياستنا واقتصادنا وقانوننا وشعاراتنا كلها شكلية عقيمة لم تصدر عن قناعة حتى من طرف كبار المسئولين الذي حملوها.

رفعنا شعار الاشتراكية وصفّقنا في تلك الفترة ومن لم يصفّق.. هو رجعي يجب معاقبته.

وها نحن نتراجع عن هذا المبدأ ونصفّق لذلك... عبد الجليل يقطع كلام حيدر بقوله: ألم ينصحك عباس رجل النظام أن لا تقف في وجه العاصفة.. صفّق مع المصفّقين

وستنجح لا محالة.

يسكت الطيب ثم يندفع قائلا: ألم يكن هذا نفاقا... إلى متى ننافق ونشجّع على النّفاق من أجل مصالح آنية.. ينبغي أن نضع حدّا لهذه الفئة التي تتحكّم في أرزاق الناس وتسيّره وفق هواها ورغبتها.

نعم نريد دولة القانون ولكن يجب أن يعلو القانون فوق الجميع.

مصطفى مازال نائما من أثر المهدّئ فهو مخدّر إلى درجة تعتقد انه ميّت.

سوزان نهضت من نومها العميق.. بدت لي أكثر قوّة ونشاطا.. يرفّ ثوبها على ساقين كأنهما مجدولان من الرّخام الأبيض الشّفاف.. ابتسمت.. غمزت حيدر وضربته على ساقه بيدها كانت كحمامة أيقظته.. جعلته أكثر قوة.. رهافتها وخفتها أنعشت صدره.. هاهي سوزان متناسقة متناغمة كأنها عنقود عنب لم يقطف.. وجهها الأبيض الشفاف. وشفتها الحمراء التي تمثّل الفتنة التي صرعته مجسّمة في جسدها الجميل.. كانت تتفجّر بالندى وتكتسي بالبراعم.. قميصها المضمّخ بالعطر ولهاثها وعلو صدرها وهبوطه أنعش حيدر..

جعله في كامل قوّته ونشاطه.

هنا شعر برغبة في الكلام والمناقشة... التفت إلى عبد الجليل وقال له: يقال أن المدرسة الجزائرية مريضة يجب إصلاحها.. لماذا لم تصلّح ويعطى الأمر إلى أصحاب الاختصاص عبد الجليل يضحك وهو يقول لحيدر: أتعلم ما هو الإصلاح؟!

إن اللجنة المكلّفة فكّرت في إدراج التربية الجنسية في المدارس حتى تخرج من التخلف والجمود ونكون على غرار المدارس الأوربية.. يظهر أن حيدر وجد ضالّته. شعر بنشوة وسعادة وقال: أنا معلّم ناجح وأصلح لتدريس هذه المادّة ولي خبرة طويلة في هذا المجال... سأعلّم فتياتنا كيفية التقبيل وممارسة الهوى والجنس.. ستجدني معلّما بارعا أعرف مواطن الضعف في المرأة وأعلّم من لم تذق طعم القبلة.. وكيف تكشف النهدين العاريين وأعرف كيف يستخدم أحمر الشّفاه حتى تصبح الّشفة مكتظّة بالعسل وتلتهب لذّة... لا تخف سأفجّر فيهنّ الأنوثة وسأكون أحسن معلّم بدون شكّ.. ثم ضحك وضحك معه عبد الجليل حتى سالت دموعه... سوزان تنظر إليهما وتبتسم.. تريد مشاركتهما في الحوار الدائر بينهما.

سألها حيدر عن وجهة نظرها بين الشرق والغرب؟

ما هو الشيء الذي لمسته أو لاحظته في زيارتها هذه... ما الشيء الذي ينقصنا حتى نصل بركب الدول المتطوّرة؟

أجابت.. الشرق ساحر وجميل في كل شيء.. في شمسه ورماله في أرضه الواسعة وفي كرم سكّانه.. لكن الشيء الذي لمسته هو الخوف الذي يشعر به الكبار والصغار.. المرأة والرجل على السواء.. لا أعرف مصدر هذا الخوف؟

كما لمست التناقض بين الإنسان وذاته.. يضمر أكثر ممّا يظهر ويخفي أكثر ممّا يعلن... ثم قالت: أنتم في حاجة إلى شفافية.. إلى صراحة مع أنفسكم ومع ذواتكم... نحن لسنا مثلكم بمجرّد أن تبلغ المرأة أو الرجل لها الحرّية في العمل وفي التصرّف وفي الرأي.. تقول ما تشاء وتحبّ من تشاء.. لا تجد ما تخفيه على الغير.. كما أن لنا مؤسسات نحتكم إليها على أساس العدل والقانون كل الناس سواسية لا فرق بين قويّنا وضعيفنا صغيرنا وكبيرنا.. كل الناس سواسية.. تستطيع أن تحاكم اكبر مسئول في البلد بدون خوف أو حرج وتحصل على حقّك إذا كنت صاحب حقّ وهذا هو الذي ينقصكم حسب ما اعتقد... كلام سوزان كان في الصميم.. هذا ما ينقصنا بالفعل.. نحن نخاف على كل شيء ومن كل شيء ولذا يجب التصفيق حسب ما قال عباس "صفّق مع المصفّقين ولا تقف في وجه

العاصفة" نعم هذا التصرّف لم يكن نفاقا وإنّما خوفا.

إذا أردنا أن نحاكي الغرب في كل شيء نزيل هذه المخاوف من طريقنا.. هنا تسمع رأي الفرد وقناعته معك أو ضدّك.. وتتخلّص من الرّياء والنفاق وسوء الأخلاق...... كان اليوم يوم الأربعاء من شهر جويلية. الوقت بين العصر والمغرب حسب ما أذكر.. مناخ قاتل حارّ هنا في الصحراء.. جفاف ضرب إفريقيا بحالها.. سنين عجاف لا ماء فيها ولا كلأ.. سبل الرزق ضاقت إلاّ من الاختلاس والسرقة واللصوصية والمتاجرة بالمنوعات... كيان الدولة اهتز.. لا قانون ولا نظام ولا مؤسسات غلب قانون الغاب ودور الجماعات الضاغطة التي ترفعك أو تنزلك.

انحصرت الوطنية في العلم الذي يرفع فوق بعض المؤسسات.

شعرت بالتعب والعياء رفعت رأسي.. وابشراه دخلنا تراب ولاية غرداية.. هاهي لافتة على حافة الطريق كتب عليها.. دائرة زلفانة ترحّب بضيوفها الكرام... كتب تحتها هنا حمّام الصالحين.. ماء معدني طبيعي ساخن.. يستخدم للاستشفاء والعلاج.. أمرت حيدر أن نتوقف قليلا في هذا الحمّام نرتاح ونستحمّ ونأخذ قسطا من الرّاحة.

قال الطيب: هذا الحمّام شفي منه الكثير وبركته متداولة على جميع الألسنة.. وحالة مصطفى وغيبوبته لا يصلح لها إلاّ هذا الحمّام.

لقيت الفكرة استحسانا عند حيدر الذي شعر بحاجته الماسّة إلى الحمّام كما أن سوزان رحّبت بهذه الفكرة قصد التقاط بعض الصوّر كتذكار.

هنا ضرب حيدر على مكابح سيارته ودرنا جهة اليمين. لا أنسى منظر ذلك النخيل الباسق الذي يحيط بالمدينة والغابات الكثيفة.

كانت في أرض منبسطة خالية من الجبال.. تشعر بالراحة والاطمئنان وأنت تمشي في شوارعها.

فور وصولنا دخلنا أحد المطاعم وأخذنا بعض الوجبات الخفيفة بعد أن شربنا الشّاي وتوجهنا مباشرة إلى الحمّام.

دخلنا الحمّام.. كان يغصّ بالسوّاح والمرضى من كل صوب وحدب.

هنا أحواض جماعية مشاعة لجميع الناس وهناك أحواض فردية خاصّة إذا لم تحب الاختلاط بغيرك.

الطيب وعبد الجليل يمسكان بمصطفى ويدخلا معه الحوض

الجماعي. حيدر مع سوزان يؤجّران حوضا خاصّا مدّعيا أن سوزان زوجته.

مصطفى ينتعش شيئا فشيئا بعد أن اغتسل وارتاح وشرب بعض العقاقير من عند عشّاب هناك. حالته أصبحت أحسن وأفضل.. عادت له بعض الحيوية والنشاط وزال عنه ذلك الأرق والتعب.

انتظرنا طويلا ولكن لا أثر لحيدر وسوزان.

نحن في عجلة من أمرنا ونريد أن ندخل مدينة غرداية قبل غروب الشمس.

طال انتظارنا فدخلت إلى رواق الأحواض الخاصّة أقتفي أثره... سمعت صوته... فتوقفت عند تلك الغرفة الخاصّة.

دققت الباب وناديت فما من مجيب... هززت الباب هزّا وما من صوت.. وجدت ثقبة في فتحة الباب.. نظرت منها ويا للعجب سوزان كسمكة في الماء تطفو وترشّ الماء على حيدر.

تنزله.. تضمدّه وتغسله.. بدت لي جميلة فاتنة ساحرة.. وجسد مضروب بالحليب والثلج.. بياض ناصع وثديان متماسكان مستنفران للقتال.

حيدر يشعر بالشراهة والرغبة.. يكشف قدرته على

ترويضها والسيطرة على نارها المحرقة.. يمرّر شفته على جسدها.. يشعر أن قلاعها تسقط في يده.. يندفع بكل ما يملك من قوّة.. يخرج سيفه ورمحه ويطلق سراح خيله.. يبدأ الصهيل... حيدر أغراه الصعود والنزول.. لم يعرف له شاطئ أو قرار.. فهو سكران من فرط النشوة لا يسمع أحدا ولا يبالي بأحد.. قوافله ظمأى ومعدّاته مثارة للمهارشة.. يمسك جسد سوزان يعصره بقوّة.. يريد أن يغرسه في قلبه ويعيش في عبقها.. يسعد ويبتهج حيدر ما زالت جيوشه قادرة على التقدم والزحف على كامل هذا الفضاء الجسد... يشمّ أطراف يديها وعنقها.. يشعر بتلك المراكب المحمّلة بالفيروز.. يريد أن يرتوي أكثر ويقضي على هذا الظمأ.. فالجسد ناعم طازج مثل حبّ الليمون.. مطرّز بالنجوم مثل ليل الصحراء.. يضع يده على خصرها.. هنا ربوة خضراء غنيّة.. يمرّر شفته.. يعتصرها ويجعلها رسما هلاميا بلا ملامح ولا تفاصيل.. ثم يرفع يده عنها.. يستمتع بنهديها.. يقبّلها قبلات حارّة. يشبعها جنسا مثل الحصان.

طال انتظاري أكثر.. دققت الباب ثانية، هززته هزّا... حيدر لا يبالي.. مازال رابضا فوق كفليها يغنّي منتشيا.. كانت الأحراش تبكي والخليج يزبد.. حيدر يعيش بداخله

وحش.. رأيته ملتصقا بجسد سوزان لا يريد الرّحيل.. يشعلها وتشعله.. يغازلها وتغازله... وحين يجوع يأكلها.

ها هو ينقّب ويبحث من الخصر إلى السّاق.. هاهما ساقيها البيضاويان تملآن غريزته التهابا.. تثير جوعه الغريزي.. هاهو ينفث عن مكبوت شهوته.. عمر من الظمأ والانتظار وليس غريبا أن يمطرها قبلا كأنه ينهل من نهر.. غارق يرتوي من هذا البرعم النادر والنافورة الصادحة...

يشرب من هذا الوعاء المورّد بالأحمر.. يقبّل شفتيها وهي مستسلمة له.. يستنشق شعرها المنثور على جيدها الأبيض المضيء.

دققت الباب ثانية وثالثة ثم قلت في نفسي: حيدر في لحظة الوداع الأخير.. سأتركه وانتظره خارجا... بقيت مع رفاقي أرشف الشاي وأتأمّل الطبيعة.. مازالت الدنيا بخير.. هنا تشعر بالتكافل الاجتماعي وكرم الضيافة ونقاء السريرة.. ها هي نخلة ضاربة بجذورها في الأعماق.. فعرفت أن الحياة بخير... النخلة هي رسول الصحراء ورمزها.. حلاوة تمرها من حلاوة أهلها.. شموخها من شموخ ساكنيها.

شعرت بحاجة إلى سيجارة.. تناولتها.. أمتصّها بنهم.. عبق رائحتها زادني حيوية ونشاطا.

لأوّل مرّة يطلب مني مصطفى سيجارة.. منحته إيّاها بفرح.. مصطفى أصبح أكثر خفّة وجمالا.. بدت ابتسامته بريئة حلوة المذاق.

تأمّلته مازال خنجر "إينازم" في جيب سترته.. التفتّ يمنة.. هاهي سوزان برفقة حيدر تظهر كالنجمة وسط الظّلام.. حين ضحكت وابتسمت ندت من فمها عذبة ذات نغم آسر... صوتها بين التفخيم والترقيق يفتن.. هاهي تترجرج في حركة خفيفة هادئة تبهر برشاقتها وخفتها وشعرها الذهبي الأشقر.. فهي كالفراشة المبتلّة.. بل هي حبّة رمّان نفيسة.. حين تهزّ صدرها وتتجسّد استدارة ثدييها مبرزة حلمتها المدوّرة تبدو فاتنة الجمال... تستقبل مطر الربيع.. مفاتنها في كل الأرجاء من جسدها.. غابة تثلج الصدر وتريحه.. شهية العطر.. لها عينان دافئتان.. يقطر منها العسل.. جلست بجانبي واضعة رجلها فوق الأخرى فظهر فخذها أبيض حمري مضيء.

شعرت بالنشوة.. هزّتني رائحة العطر.. هاهي سوزان بجواري صارخة زاعقة تستفزّ الشهوة.. هاهي تحمل جميع صفات الخضرة الموجودة في الأشجار والغابات.. صافية كصفاء

النجوم المنيرة.. أوّل ما شدَّ انتباهي ساقها الأنيقة المتألِّقة وصدرها النافر الفتيّ.

عبد الجليل تضايق من هذا الجلوس المملّ فأمرنا بالتوجّه إلى غرداية حتى ندخلها قبل الليل ركبنا السيارة وانطلقنا.. كانت المسافة قصيرة سرعان ما دخلنا مدينة غرداية جوهرة الواحات.. هاهي الجبال تحيط بها من كل جانب.

الغريب أن هذه المدينة تقع في واد بين جبلين شامخين يتوسّطهما شارع طويل يبدأ من بلدية "ضاية بن ضحوة" حتى "العطف"

نزلنا بهدوء منحدرين من مرتفع جبلي.. هاهي الأضواء تتلألأ.. مررنا بحي "بونورة" ثم"بن يزقن" هاهم بنو مزاب بملابسهم الفضفاضة وقبّعاتهم البيضاء.. هناك من يمشون.. وهناك من يركبون حميرهم وبغالهم.

مصطفى شدّه هذا المنظر.. فنظر إليهم بذهول وقال.. هم.. هم... سأله حيدر: من هم؟ فأجابه.. هم من رأيتهم على الصّراط يمرّون بدوابهم وحميرهم.. مرّ اغلبهم وسقط من سقط..

ضحك الطيب وقال: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله

سرعان ما قلنا مصطفى شفي.. وها هو يعود إلى مرضه من جديد.

الطيب أمرنا بالتوقف فمنزله هنا على بعد أمتار.. إنه يقيم في "ثنية المخزن" ودّعنا وداعا حارًا بعد أن أعطى عنوانه لحيدر وعبد الجليل.

تركناه وواصلنا الطريق إلى "بني يزقن" سوزان تريد اقتناء بعض الأشياء التقليدية كتذكار ثم ذهبنا إلى "السويقة" نتسوّق هناك فأغلب الأمور التقليدية موجودة.

مدينة غرداية مدينة سياحية.. شوارعها ضيّقة ملتوية.. أوّل ما يشدّ انتباهك.. التجارة النشطة وغابات النخيل.

حيدر كان يصرّ دائما أن يدفع ثمن مقتنيات سوزان من هدايا وما شابهها.

غربت الشمس.. ظلام حالك إلاّ من تلك الأنوار المضيئة في الشوارع.. حرارة قاتلة إلى درجة الاختناق.. أمرتنا سوزان أن نتّجه إلى فندق الجنوب حتى تلتقي بزميلاتها فموعد الرحلة غدا والتذاكر عندهنّ.

كان وجه حيدر يعتصر وقلبه يخفق مع وقع الرحيل الذي نزل عليه كالصّاعقة.. شرارة حمراء لمعت في وجهه.. ارتسمت ضبابة مخيفة على محيّاه.. زادتها قسوة الهجير شدّة.. كان يلهث وهو يحمل حقائب سوزان إلى الفندق.

سوزان أصرّت أن نبيت هنا الليلة في هذا الفندق معا.

فالجوّ حارّ والليل مظلم وحيدر نفسه في حاجة إلى البقاء مع سوزان وتوديعها.

دخلنا الفندق كان يعجّ بالفتيات من مختلف جنسيات العالم..المكيفات الهوائية ساعدت في إنعاشنا.. ارتوينا من هذا الهواء البارد.. كما أن شهية العطر عبقت في أنوفنا وجعلتنا أكثر خفّة ومرح.

اجتمعنا حول مطعم الفندق.. أكلنا ما لذّ وطاب.. سوزان كانت تقدّم بقية رفيقاتها إلى حيدر وتعرّفه بهنّ.

عبد الجليل لم يستطع الصمود أمام تلك الفتيات شبه العاريات متظاهرا بالتعب والنوم.. فأخذ مصطفى معه ودخلا معا إلى أحد الغرف المجاورة.. بقيت أنا رفقة حيدر وسوزان أتمتّع بهذه الأجساد العارية الجميلة وقد شجّعني حيدر على البقاء.. كان يريد لنا فراقا جميلا من عناء هذه الرحلة المتعبة الشاقّة.

حيدر في نظر سوزان طاغية يسكت لهيبها وظمأها يطفئ النار التي تشعر بها يشبع رغبتها هذه هي الصورة الحقيقة التي يحملها هذا الرجل في نظر سوزان صورة الشرق في مرآة

الغرب دائما لا تخرج على الاستغلال والاستهلاك الذي يصل إلى درجة الاستنزاف.

استنزاف الشرق في خيراته ومائه وبتروله وغازه وقوته.

ضربت الموسيقى الغربية الصاخبة في أرجاء الفندق وبدأ الرقص والطرب والتصفيق.. دخلت تلك الفتيات في بهو الفندق يرقصن... أجساد محمومة تكاد تكون عارية من كل شيء.. لا أنكر عليكم يا سادتي إنهنّ فتيات جميلات ساحرات.. نشوة العطر ورائحة الحريم أثارت غرائزي.. هنا النهود الأقحوانية الملتفّة.. والأفخاذ البيضاء الممتلئة.. والبطون المنبسطة.. والشعر الأشقر.. والعيون الخضراء... كانت أيديهن في نعومتها وبياضها كالشموع الصفراء.. بل كأنهار من ماس ابيض... هنا الشموس والنجوم والشواطئ والسهول.. من يرفض الإقامة على كوكب من هذه الكواكب.

ها هي فرنسية تلوّح بيديها ورجليها.. جميلة متناسقة في كل شيء.. مسكتني من يدي.. وقفت.. شعرت بأنفاسها وطيبها.. شممت عطرها.. قبّلتها.. شعرت بجسدها الناعم وأحسست بهذا الربيع الذي يقتل الظمأ.. استنشقت رائحة جسدها شبرا شبرا حتى وصلت إلى النهدين.. شعرت بهما ربوة خضراء يانعة.. ياقوتا مثيرا.. مسكتها ودسست رأسي في

عنقها. هذه جزيرة الأمان.. مقام مقدّس يصلح للاستشفاء هاهي شفة مكتظّة بالعسل... هنا طعم الموز والتفاح والعنب.. كنت أرشفها وأشربها وأأكلها.. نزلت على سطح بطنها.. هنا صنوف العاج والياسمين وقوارير العطور.. كنت أتهجّاها أكتبها وأقف عند حدود جسدها.. قدّرت المسافات وحدّدت مساحة أوربا بكاملها وجدتها أرض يانعة مملوءة بالينابيع والخضرة.. أرض غنية بالجواهر والحنطة والأشجار.. تفاح ورمّان وتين وسفرجل.. أكلت وشربت ونمت وصحوت على ذلك النهد الملتفّ الذي حرّكني كالطوفان... فغصت من جديد حيث المتاهات متحد يا أشجع الفرسان وقلت بصريح العبارة.. اضحكي وابكي وجوعي وتعرّي ثم ارحلي حيث تريدين الرحيل... أفرغت حمولتي في ذلك اليوم.. تخلّصت من ذلك الكبت الطويل المرير.. شعرت بأني ولدت من جديد بدون عقد ولا حواجز سليم معافى.. ظهرت لي الأمور على حقيقتها وأصبح عقلي يفكّر أكثر ممّا كان عليه في السابق.. أصبح أكثر هدوءا وصفاء.

نظرت إلى "حيدر" وجدته يبكي وهو متّكئ على صدر سوزان.. فاجأني مشهده المثير.

هل هو "حيدر" الفارس الهمام الذي جاء يثأر.. انقلب

انتصاره إلى هزيمة.. هاهو يطلب من سوزان البقاء.. إنه يبكي بدموع حارّة ويقبّل يديها ورجليها ويستنشق أنفاسها وحمّى صدرها العاصف.. أصبح أسيرا يذوب في كل عضو من أعضاء جسدها.. الشعر والعين واليد والفم والنهد.. إنه يعبدها.. يلثم قدمها.. يريد أن يرتوي أكثر.. هاهو منتشيا بعطرها ذائبا في حبّها.. صدر سوزان وثدييها صومعة للعبادة.. استحمّ بذلك الندى وهو يقول: أعرف أني هلكت وأني تركت هنا خير ما فيّ.. في الرحيل الكبير أحبّك أكثر.. أنت الأفق الذي ينير ظلمتي أنت الروح التي تنعشني وتغذّيني..جسدك الرّيان يشفيني من مرضي.. ثم يرفع رأسه ويقول: أنا أشتهيك بكل نبضة في قلبي.. بكل قطرة من دمي.. لا تتركيني سأرحل معك تأملت حيدر عن قرب وقلت في نفسي: عباس على حقّ حين قال لحيدر أنت مثل الأنظمة العربية سرعان ما تحنّ إلى الغرب وتطلب شفاعتهم وحبّهم ورحمتهم مثلما يفعلون.. مازالت المستعمرات البريطانية تحنّ إلى التاج البريطاني حتى يومنا هذا.. ومازالت المستعمرات الفرنسية تحنّ إلى فرنسا وتطلب ودّها ورحمتها.

هاهي الجزائر بعد أن قدّمت مليون ونصف المليون من الشهداء.. قوافل لا تعدّ ولا تحصى.. هاهم حكّامها اليوم

يهرولون إلى فرنسا يطلبون ودّها ويعتزّون بلغتها ويتشدّقون بها في بيوتهم وأمام شعوبهم كأنّهم لا هويّة لهم ولا تاريخ ولا لغة... حيدر مثلهم تماما بالأمس القريب قال: إني طالب ثأر وصاحب قضية وها هو اليوم يبكي ويرتشف الحبّ من شفتيها في قبلات حارّة... يريد منها أن تأخذه معها حيث تقيم أو تستقرّ هنا معه... فهو لا يطيق فراقها ولا يقدر على تسيير حياته بدونها.. إنه مثل الأنظمة العربية تمام قلبا وقالبا.... لم يبق من الليل إلاّ ربعه الأخير..شعرت بالتعب..أخذت غرفة مجاورة لغرفة مصطفى وعبد الجليل ونمت.. استيقظت على دقّات الساعة الجدارية.. كانت السادسة صباحا.. نهضت مسرعا ودققت غرفة مصطفى وعبد الجليل ومررت إلى الغرفة المجاورة أتفقّد حيدر.. ويا للمفاجأة.. إنه واقف في بهو الفندق ينتظر في حالة فزع ورعب.. وهو على مزاج متقلّب.... إنه موعد رحيل سوزان... هاهي سوزان تحمل حقائبها.. وجدت حيدر ينتظرها في الرواق المقابل.. قبّلته على خدّه الأيمن وقالت له: باي.. باي.. قالتها ورحلت بكل عفوية وبرودة.

حيدر بقي كالتمثال في مكانه من فرط الصدمة.. لم يستفق بعد.. حتى حرّكته وجررته من يده وذهبت به إلى السيارة... وصل به الذهول إلى الشعور بالإغماء ثم بدأ يبكي.. رأيت

الدموع تنهار بغزارة من عينيه وهو يقول: سوزان رحلت ولن تعود... يتجشّم وجهه ويندفع الدم الحارّ إلى وجنتيه وبدأ يصرخ.. أريد سوزان.. أريد من أهوى حتى خارت قواه وانحطّت عزيمته وتجمّدت الدّماء في عروقه فارتمى على الأرض مغشيا عليه... بقي على تلك الحال حتى أقبل عبد الجليل يصحبه مصطفى بعد أن أصبح أحسن وأفضل ممّا كان عليه في السّابق.

عبد الجليل تفاجأ من حالة حيدر وقال: وا أسفاه هل هذا هو الفارس الهمام الذي لا يعثر له على غبار يبكي على رحيل امرأة أجنبية تأمّله عبد الجليل مليّا ثم قال: هاهو يولول كالمرأة التي فقدت ابنها.... يا رجل انهض واركب سيارتك.. سوزان ليست منّا ولا نحن منها.

وقف حيدر متثاقلا وركب سيارته وقد أظلمت الدنيا في عينيه.. تحرّكت السيارة بهدوء صوب مرتفع جبلي يسمّى "عقبة بوهراوة".. كان المحرك يئنّ من وطأة الارتفاع.. وقد خرج منها حيدر لاهث الأنفاس مرهقا لا يكاد يقوى على الكلام إلاّ بكلمات قليلة هامسة.. وكان يتوجّع رغم محاولاته للتجلّد والصبر.

استوت الطريق.. هاهو ضريح "سيدي المستجاب" يقصده

العرسان للتبرّك وقد سميّ هذا الولي بالمستجاب لأن دعوته مستجابة ومسموعة.

توقفت السيارة على مهل.. نزلنا نتبرّك مثل غيرنا من الزوّار.. حيدر يمشي بخطوات متثاقلة.. يمسك بمقام الضريح ويدعو.. يا سيدي.. يا مولاي.. أغثني.. يا أولياء الله الصالحين أغيثوني.. ببركتكم خفّفوا عنّي هذا المصاب الجلل.. ضعيف يريد نصرتكم فأغيثوني.... يا أولياء الله.. سوزان رحلت وتركتني يتيما مريضا لا أجد من يساندني.. يا وليّنا "سيدي المستجاب" أعنّي على هذه المحنة التي ألّمت بي.. خفّف عني هذه الخطوب فأنا بحاجة إليكم.. بعد أن افترق عني الجميع.. سوزان رحلت و"عائشة" تركتها بعيدا.. بعيدا "تامت" مثلها.. فلا أنيس لي في وحدتي ولا رجاء.

عبد الجليل يتأمّل حيدر.. يجده محتضنا هذا النصب... يدعو ويترجّى... مصطفى بجواره واقف كالتمثال.

عبد الجليل يتأمّلهم ويقول مع نفسه: يا إلهي أصبحت بين مجنونين.. ماذا أفعل؟

كان الزّوار ينظرون إلى هذا المشهد بكل ذهول وتعجّب.

عبد الجليل يمسك الاثنين معا ويجرّهما إلى السيارة..

نركب وتنطلق الرحلة... مازال حيدر يبكي. أعتقد أن العرب جميعا تطغى عليهم العاطفة.. يحكمون بقلوبهم لا عقولهم وهذا هو سبب بلائهم وضعفهم.. أمّا الغرب فيحكّمون عقولهم في كل شيء وينظرون إلى الحياة نظرة مادّية بحتة.. وقد ساعدتهم هذه الطريقة على الأخذ بأسباب الحياة.

سوزان ودّعت "حيدر" بقولها "باي" " باي" وهي تبتسم "حيدر" الرجل الهمام مازال يبكي بدموع حارّة حتى الآن... تأمّلت هذه المفارقة العجيبة تأمّلت حياة العرب من العصر الجاهلي حتى اليوم.. وجدت حياتهم تعتمد على العنصر الوجداني البحت، وحتى الشعر عندهم هو في أغلبه شعر غنائي وجداني.

العربي يحبّ ويكره لأتفه الأسباب.. تسيّره عاطفته ونزواته العابرة.. لا يبالي بعواقب الأمور.. مندفع لا يحكّم عقله ولا يتريّث ولا ينتظر.

حضرني مقطع لعمرو بن كلثوم يقول فيه:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قارنت هذا المقطع بموقف الرئيس العراقي "صدام حسين" حين تحدّى العالم بأسره وأعلنها حرب استنزاف قصوى مات فيها الملايين.

كان من الحكمة والمنطق أن يتريّث ويعالج الأمور العالقة سياسيا بدل الدخول في حرب خاسرة.

حتى الشعوب العربية في تلك الفترة كانت عاطفية أكثر من اللزوم.. وتؤمن بانتصار العراق وأنه يملك المعدّات الكافية لردع العالم بأسره.

لم يفكّر أحد في تلك الفترة بالعقل والمنطق.. إذ كيف يعقل أن تنتصر دولة صغيرة مثل حجم العراق على العالم الصناعي المتطوّر بأسره.. انتبهت على صوت مدويّ.. رفعت رأسي إنها شاحنة تجرّ عربة اجتازتنا بسرعة مذهلة.. هاهي مدينة "برّيان" نمرّ عليها دون أن نتوقّف..

الطريق أصبحت مستقيمة ومنبسطة.. هنا آبار الغاز لا تعدّ ولا تحصى... نظرت إلى مصطفى إنه يبتسم.. حاولت التقرّب منه.. وجدته في عالم آخر.. مصطفى يا سادتي يعيش مع أحلامه وذكرياته البعيدة.. إنه الآن مع سارة ليلة زفافه.. يتذكّر أثوابها بألوانها المختلفة تستولي على عقله وتفكيره.. هاهو يوقد الشموع بدل الأضواء الكهربائية.. قبّلها.. عانقها.. عدها بحياة سعيدة.. ضمّها فيشعر بطيب أنفاسها.. عبّر عن حبّه وأشواقه لها.

يسترجع لون فستانها المزركش المحبّب في نفسه.. ترتسم في مخيّلته قدمها الصغيرة الحافية المسترطبة وتلك الأصابع المخضبّة بالحنّاء وطلاء الأظافر... هاهو مشهد الزفاف أمام بصره.. يتذكّر جيدا يوم دخلته حين وجد "سارة" على حافّة السرير يتأمّلها من أعلى إلى أسفل فتتقف عينه عند قرطها يتأرجح في أذنها.. وذلك السّوار الذي يزيّن معصمها.. هاهو يكتشف جيدها الجميل ويشمّ رائحة المسك والعنبر والطيب.. لأوّل مرّة يكتشف ذلك النهد الناعم الملون باللون الخمري.. إنه يتأمّل أهدابها وفمها وجسدها..يجدها ربيعا ينهل بالزهور وطواه بعبيره الفوّاح.

إنه يستعيد أرجاء غرفته وسريره..يجدها عطرا يغمر الأنحاء.

مصطفى يحنّ إلى تلك الأيام مع "سارة" إنه يبتسم سابحا مع ذكرياته البعيدة.

هاهو يتجشّم الآن..تحمرّ عيناه.. الصورة القاتمة عادت إلى مخيّلته..هاهو يتخيّل "سالم" يدخل غرفته..يستغلّ غيابه ويغمر سارة مثل مياه النهر.

يصرخ مصطفى.. يطلب من حيدر السرعة.. يضرب يديه

ورجليه.. ينتبه إليه عبد الجليل يطلب منه التشهّد والاستغفار فيعود الرجل إلى هدوئه قائلا: لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه.

كان الوقت ضحى.. مازالت الشمس تلهب بأشعّتها الحارّة.. نظرت عن يميني وعن شمالي.. هنا الكثير من أنابيب الغاز الملتهبة.. هذه منطقة "حاسي الرمل" حسب ما أعتقد.. يوجد في هذه المنطقة أكبر احتياطي في الغاز الطبيعي يجعل الجزائر في مصافّ الدول الكبرى في التصدير.

رفعت بصري هاهي لافتة كتب عليها "ولاية الأغواط" ترحب بضيوفها الكرام.. هنا الأغواط عاصمة الأرباع الأشم.. شممت فيها رائحة الأهل والخلاّن.

إنها موطني الأصلي.. الأرباع يا سادتي قبيلة من القبائل العربية الأصيلة.. نزحت من اليمن إلى الشمال الافريقي مع موسى بن نصير.. اتّخذت الأغواط موطنا لها.. يتميّز أهلها بالكرم والسخاء والطيبة والأنفة.. مازالت لهجتهم في أغلبها عربية فصحى.

هاهي منطقة حاسي الرمل المنطقة الصناعية هنا تعجّ بآبار الغاز والبترول.. كل الشاحنات التي مرّت بنا في هذا الموقع الجغرافي تحمل رمز شركة سوناطراك.. إنها الشركة الأمّ التي

تستحوذ على منابع الطاقة في الجزائر.

رفعت بصري.. هاهي مدينة "بليل" الجديدة أو تسمّى بلدية حاسي الرمل.. سكّانها من عرش الحجاج وهم بطن من بطون الأرباع..توقفنا لنتزود بالوقود هناك ثم واصلنا المسير.

حيدر ملتزم الصمت لا يتفوّه بكلمة.. اقتربت منه أكثر.. حاولت أن أثيره وأخفّف عنه لوعة الحزن.. أعرف أنه لا يعجبه من الكلام إلاّ الحديث عن سوزان.

لم أعرف كيف أبدأ كلامي لكنني تشجّعت وقلت له: كن رجلا يا حيدره.. سوزان رحلت وانتهى الأمر.

التفت إليّ بكل ذهول وتعجّب ثم قال: سوزان هي الأمل.. هي الحضارة.. هي المستقبل.. شعرت بالأمان رفقتها.

سوزان هي مركبي الجميل.. وجزيرتي التي أحيا بها.. هي الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون.

حيدر يرفع يديه إلى السماء.. يتخيّل سوزان انهارا بلون الفيروز تصطخب داخله محدثة نشوة تتجاوز نشوة الخمرة...

يتصوّرها جزيرة ترسو عليها مراكبه... يخيّل إليه برجا عاليا من الحسن والجمال.

ثم يلتفت إلى المقعد الذي كانت تجلس عليه.. يستنشق رائحته ويقول:

مازال عطرها يغمر هذا المكان.. إنّها بحيرة معطّرة.. بل حديقة مخضوضرة.. يتوقّف برهة ثم يواصل، أصبح المكان بعدها قفرا بوارا لا ماء فيه ولا كلأ.

سوزان يا إخواني جعلتني أشعر بالأمان وأبتعد عن عصور الجفاف حيث تذوب الحدود وتلغى المسافة... حين أمسكها من يدها أشعر بها سمكة مولودة في مياه البحار..قرأت في جسدها كل خرائط العالم وحفظت أسماء كل البحار وأشكال الصخور.

كيف أنسى سوزان التي أخرجتني من جمودي وتحجّري وتوحّشي وجعلتني أكثر إنسانية من غيري.. هي التي علمتني الحضارة وجعلتني أميرا أزرع البذور في أرضها العذراء وأمتصّ رحيق التين والعنب.. لم أعرف وقتها أن بستانا بين يديّ مليء بالورود والظلال التي لفّتني وأسعدتني... يا إلهي ما أتعسني كان الوقت بين الظهر والعصر..أحسسنا ببعض الهواء البارد وشعرنا بنسيم لطيف يهبّ من جهة الشمال.. لم نشعر بطول المسافة حتى دخلنا مدينة الأغواط من بوّابتها الرئيسية.

هنا نشأ "الناصر بن شهرة" رجل المقاومة والتضحية.. هنا معقل الإمام "احمد شطة" والشيخ "العربي تبسي" وغيره كثيرون.. هنا موطن "الزاوية التيجانية" التي نشرت الإسلام عبر ربوع إفريقيا.. هنا "الأرباع" الأشمّ قبيلة الأنفة والشهامة والعزّة.

دخلنا إلى هذه المدينة ونحن محمّلين بالتعب والعناء ومشقّة السفر... عبد الجليل ينهض من نومه فجأة.. ينظر إلى المدينة بتمعّن ويقول: هل هذه مدينة الأغواط؟

يردّ عليه حيدر بإشارة من رأسه تشير بالإيجاب وهو ملتزم الصمت... يتذكّر عبد الجليل صديقا له يسمّى "إبراهيم" يقيم في الواحات الشمالية يريد أن يراه.

نمرّ عبر المعمورة.. هاهي ثانوية الإمام الغزالي وهي ثانوية عتيقة كانت مفتوحة لكل سكان الجنوب الجزائري.

وصلنا إلى مفترق الطرق واتّخذنا الطريق الغربي وجهتنا... حتى وصلنا إلى الحيّ المعروف بالواحات الشمالية... أول منزل توقفنا عنده كان منزل هذا الصديق... لحسن حظّنا وجدناه أمام بيته.. فرح بقدوم عبد الجليل واستقبلنا استقبالا حارًا يعرف منه طيبة هذا البلد وسخاء أهله... دخلنا بيته وطلبنا

منه بعض الرّاحة فقد أنهكنا التعب.. نمنا نوما هادئا ارتحنا فيه من مشقّة السفر.. لنجد بعد ذلك صينية من القهوة تعبق منها رائحة الشيح... شربنا ما فيه الكفاية... كان إبراهيم جالسا بيننا يطلب منّا المزيد وكلّما فرغ كأس يملأه من جديد.

لمست في هذا الرجل طيبة النفس وخفّة الروح والميل إلى الفكاهة... كان يتكلم مع عبد الجليل في ما يخصّ الدراسات العليا الجامعية وموضوع رسالة الماجستير عرفت في ما بعد أن إبراهيم أستاذ جامعي متخصّص في الثقافة الشعبية... إبراهيم كان بصحبة مجموعة من الأصدقاء أعتقد أنهم جميعا يشتغلون في سلك التعليم العالي سألهم عبد الجليل عن اختيارهم؟

أحدهم اختار "الحرب في الرواية العربية المعاصرة" وهو على وشك المناقشة عبد الجليل أعجبته كلمة الحرب وقال معلّقا: هذا العنوان يتّفق مع مزاج حيدر فيما سبق.. فقد كان رجل حرب وأعلن طبولها منذ زمن.. لكنه الآن رجل سلام واستسلام.. جيوشه لم تكن قادرة على التقدّم شبرا واحدا.. كما أن وسائله القتالية أصبحت عديمة الجدوى ولا فائدة ترجى منها... حيدر لم ينبس بكلمة واضعا رأسه بين يديه وملتزم الصمت... سألني أحدهم عن اختياري فقلت له "آليات البناء الروائي عند أحلام مستغانمي"

قال معلّقا: ما أعجبك في أحلام مستغانمي.. ألم تكن هي صاحبة قصيدة "في لحظة عريّ"

فقلت له: هي على حقّ.. ما ينقصنا إلاّ تعرية الواقع.. سرقنا باسم الوطنية..

نفسق ونزني باسم الوطنية وباسم أحلام الشهداء.. سمّينا الرشوة هديّة... نجري ونلهث وراء المسؤولية باسم الدّين تارة وباسم الوطنية تارة أخرى... نعتمد على الرشوة والمحسوبية والجماعات الضّاغطة في سبيل الحصول على منصب معيّن في الدولة ثم نسمّي هذا العمل تكليف.. كل هذا يحدث بسبب المستور..المكبوت..المضمر.. نحن في حاجة إلى تعرية.. تعرية الواقع..تعرية النفوس...تعرية المجتمع.. حتى نصحّح المفاهيم ونضع أرجلنا على الطريق الصحيح.

أحلام مستغانمي دقّت كهوف الذاكرة في روايتها الشهيرة "ذاكرة الجسد" وأثارت "فوضى الحواس" ولم يبق إلاّ "صحراء الظّمأ".فلنقرع هذا الظّمأ ونرتوي إيذانا بيوم جديد فيه الشفافية والصدق بين الظّاهر والباطن.. عبد الجليل لأوّل مرّة يبتسم..قد أعجبه كلامي وقال لي: بصدق.. نعم..أنت على حقّ.

نعم نحن في حاجة إلى تعرية النّفوس وتعرية الواقع.. ثم

قال: حكّامنا يقسمون على احترام الدستور والميثاق ثم يخونون بعد ذلك لنفس الأعذار والمبرّرات... بريطانيا وأمريكا مازالت على دستورها منذ سنة 1800 إلى يومنا هذا ونحن ما زلنا في حالة تغيير وتبديل وتعديل... مصطفى حالته زادت سوءا..أصبح يهذي ويصرخ ويتعجّل الرحيل... لم يسمح لنا بالمبيت ليوم آخر.. إبراهيم أمرنا أن نمرّ به عبر "كوردان" معقل الزّاوية التيجانية بمدينة عين ماضي والتي لا تبعد كثيرا عن مدينة الأغواط.. إبراهيم يحثنا على زيارتها طلبا للشّفاء..ففيها البركة.. ركبنا السيارة وانطلقنا..لم نشعر كيف وصلنا.كانت المسافة قصيرة جدا.

ها هو المزار في وسطه قبّة كروّية الشكل تحيط به أضرحة.. يتوسّط القبّة شجرة خضراء وارفة الظلّ مشبّعة برائحة العطر والبخور.

هنا الطريقة التيجانية التي نشرت الإسلام عبر ربوع القارّة السمراء.. هنا ضريح سيدي التجاني وسيدي عبد الحميد وسيدي الطاهر ولالّة فاطمة.. هنا أحفاد الحسن والحسين العائلة الشريفة وآل البيت... شعرنا ونحن ننزع أحذيتنا وندخل البهو بالأمن والأمان.. شعرنا بأرواحنا ترفرف من بين جنوبنا... صلّينا ركعتين تيمّنا وبركة.. ثم أخذنا في الدعاء كل واحد على انفراد...

تأمّلت رفاقي.. شدّ انتباهي مصطفى رافعا يديه إلى السماء.. يبدو عليه التعب والأرق وهو يتضرّع ويدعو دعوة ملهوف متشوّق.

يا أولياء الله الصالحين.. يا سيدي أحمد التجاني يا من تسكنون هذه القبّة الشريفة.. أغيثوني ضعيف يطلب نجدتكم، حائر يطلب مشورتكم، مستغيث يريد ودّكم ونصرتكم.

لا تتركوني وحدي "سارة" خدعتني في عرضي وشرفي... استغلّت حسن نيتي.

يا أولياء اللّه، أشيروا عليّ، هل أقتلها وأستريح، هل أفوّض أمري للّه وأتركها تفعل ما تشاء، هل أسافر إلى بلد آخر وأتزوج غيرها، هل أترك متاعي وملكي وبيتي.

أشيروا عليّ يا أشراف نسب رسول اللّه.

تركت مصطفى على تلك الحالة يدعو تارة ويقبّل الضريح تارة أخرى وأحيانا يصلي ويصلي ويصلي... اقتربت من عبد الجليل، إنه يقرأ القرآن ولمّا شعر بقدومي همس في أذني قائلا هذه أنصاب لا تنفع ولا تضر، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

تذكّرت "حيدر" أين هو، وجدته جالسا في وسط المقام ينظر بخشوع، تأملته أكثر... وجدته رافعا بصره إلى الأعلى ويتمتم.

حيدر طغى عليه الجانب الخفيّ في عالم الروحانيات، يدعو دعوة ملهوف إلى من يأخذ بيده لكن لا يجد أمامه إلاّ سوزان... هاهي بلباس النوم الشفّاف تبدو كالفراشة تريد الإمساك به وهي تقول له خذ بيدي ألا ترى أني أريدك، إنّها امرأة ناضجة موفورة الأنوثة، كأنّها زهرة تفتحت أوراقها.. يمد يده يريد الإمساك بها ولكن لا يستطيع، يجد مسافة فاصلة بينهما.

حيدر يخوض معركة رهيبة في سبيل الوصول إليها، يشعر بالانبهار والعجز... توقظه شراسة الشهوة.

سوزان تكلّمه كلمات مهموسة، يستنشق رائحتها بحواس متوهّجة، لكن لا يستطيع أن يضعها بين يديه.

هاهي تسأله قائلة. كفى أيها الفارس الهمام، الصحراء ابتلعت طفولتك وشبابك دون رحمة أتركها وألحق بي، كفاك تعبّدا وسخرية، أترك طقوس الشرق البالية، وهيّا للحضارة.. أنا في انتظارك لتجد الحياة امرأة جميلة وغاوية... هاهي

شفاهك ظمأى شققها العطش.. تعالى لترتوي أكثر..هنا الشطآن والبحار والأنهار تشرب حتى ترتوي ولا يكون ظمأ بعد الآن... لا ظمأ...لا ظمأ ...لا ظمأ.

تختفي صورة سوزان مع اختفاء صدى هذه الأصوات.. هنا ينتبه حيدر لأصدقائه يطلب منهم الرحيل.

يخرجون من هذا المزار دفعة واحدة يتقدّمهم حيدر ويركبون السيارة وتنطلق الرحلة.

حيدر كان في عجلة من أمره يريد الوصول في أسرع وقت لا يبصر أمامه إلاّ سوزان تناديه كانت تنير مثل الشموع الموقدة مستعملة أحمر الشّفاه.. يظهر فمها الرقيق كأنه فلقتا لوزة.. هاهو يحلم بها..يشعر انه يقبّلها..يرشّها بالماء..ينهل من جسدها الفتيّ.. يعبّ من طيبها ويغوص في تلك المتاهات حيث الجنّة أو النار.. إنه يلاطف نهدها..يطويه وينثره، يتوقف على المنابع حيث الغلائل المعشوشبة.. يطال جيدها..يحسّ بهذا الطريق المعشوشب المزهر.. يسمع ضجّة الأنهر..يمتصّ ويشرب أكثر.. يجتاحها من جديد..ينهش جسدها فتبرز النّهود بصورة لافتة صارخة.. تنزلق يده فوق تلك الربوة الناعمة.

حيدر تتداعى عليه الصوّر حتى يستفيق من غفوته على صوت بعض الطيور المهاجرة في اتّجاه الشمال.. هنا يعود إلى وعيه ويخرج من تلك الأحلام.. يلتفت إلى عبد الجليل ويسأله عن كيفية استخراج جواز سفر وكل الوثائق الضرورية لذلك وكيفية الحصول على التأشيرة.

حيدر بدون شكّ ينوي الهجرة والرحيل.. يريد أن يسافر إلى بلاد الثلج حيث يجد سوزان في انتظاره.

إنه يفكّر في بيع سيارته بعد انتهاء هذه الرحلة واللّحاق بسوزان.

مصطفى يعيش مع أحلامه وكوابيسه.. شارد الذهن لا يبصر إلاّ شبح العار ولا يسمع إلاّ هذا الصوت الذي يلاحقه ويقول: اثأر لحالك وخذ بحقّك.. انتقم لعرضك وشرفك.. أقتلها لا تأخذك بها رأفة أو رحمة.. لقد خانتك...

مصطفى يتأمّل خنجره.. يمسكه.. هاهو يتعجّل المسير.

فتحت النافذة.. قاربت الشمس على المغيب وشعرنا ببعض النسيم العليل وبدا الهواء البحري الذي ينعش يصلنا..

كنّا على مشارف ولاية "تيارت" حيث السهول والمرتفعات والمنخفضات..

عبد الجليل كانت تظهر عليه علامات الفرح والسرور وهو يعدّ أوراقه وحقائبه ويقول لحيدر: انظر جمال الطبيعة واستنشق الهواء البحري الذي لم تحلم به في حياتك..

أجابه حيدر بنبرة حزينة.. لا أجد ما يعجب.. هذا الوطن لا يختلف شماله عن جنوبه.. كل أرضه ظمأى لم ترتو بعد.. هاهي التربة حمراء لا ماء فيها ولا شجر.

أجاب عبد الجليل بصوت هادئ. الوطن كله يعاني من الظمأ.. يفتقر إلى الحرّية في كل شيء.. فقد حرّية الرأي وحرّية الكلمة وحرّية التصرّف وحرّية العمل.. كل شيء مفروض على هذه الشعوب التي لا حول لها ولا قوّة.

ثم واصل يقول: الوطن العربي كله ديكورا تحاول به السلطة أن تجمّل وجهها أمام الرأي العام العالمي.. حيدر يضرب على مقود سيارته وهو يقول: لا أبقى في هذا الوطن الذي يمنعنا من كل شيء.. يوصلنا إلى الماء ويرجعنا عطاشا ظمأى.. يفرضون علينا نمطا خاصّا من الحياة يفقد فيه الشخص قيمته وحرّيته ومكانته وحقوقه... يكبّلونه بمجموعة من المخاوف تقيّد حركته وتجعله أسيرا في يد هذه الأنظمة الفاسدة.

تأمّلت كلام حيدر فوجدته على صواب... الوطن هو مسرح بشري كبير يضحك الناس فيه ويبكون ويعشقون ويكفرون ويحبّون ويكرهون... يمارسون الجنس ويؤمنون ويصلّون وينتصرون وينهزمون.. يضجرون ويوافقون ويعارضون...نعم.. الوطن الذي تنعدم فيه حريّة الفرد ليس مؤهّلا أن يكون وطنا.. والأجدر بنا أن نؤسّس الإنسان العربي وأن نجعله يرى الطريق الصحيح بقناعة وحريّة بعيدا عن كل الضغوطات التي تسيء إلى كيانه وشخصيته.

نعم يا إخواني.. ينبغي أن نقف معا ونثور معا ضدّ الفساد والقمع والدكتاتورية.. ينبغي أن نحارب الصيغ الضبابية والجمل الواعدة ونضع أقدامنا على الطريق الصحيح.

ثلث قرن من الكبت والكذب والنّفاق والرّياء والبهتان والزّور... كفى.

ثلث قرن والدّ ماء تراق هدرا والغشّ والسّرقة تضرب أطنابها عبر ربوع البلاد.. كفى.

أما يحقّ لنا أن نضع حدّا لهذه البطون المنتفخة التي أتت على الأخضر واليابس ولم يترك الأوّل للأخر شيئا.. ينبغي أن نخلع التّاج الذي يلبسه كسرى أنو شروان... الوطن ليس

احتكارا على البعض دون الآخر.. وإنّما القانون الذي يحكمنا ونحتكم إليه سواسية.. لا فرق بين غنيّنا وفقيرنا.. قويّن ضعيفنا...... دخلنا مدينة "تيارت" ليلا.. كان النسيم باردا لطيفا.. تأمّلت هذه البلد عن كثب.. وأوّل ما لفت انتباهي كثرة المرتفعات والمنخفضات.

هنا معقل الدولة الرستمية وموطن القمح الجزائري الصلب.. لكن في السنوات الأخيرة كان للجفاف الأثر الكبير في تصحّر المنطقة التي أصبحت شبيهة بالجنوب الجزائري الكبير.

عبد الجليل أمرنا أن نتوقف عند آخر المدينة يريد النّزول.

وقد ألحّ أن نبيت عنده اللّيلة ولكن حيدر فضّل مواصلة الرحلة.

واصلنا هذه الرحلة المتعبة الشاقّة... كان كل شيء هادئ ساكن إلاّ من أزيز المحرّك... حيدر يا سادتي مازال يعيش مع أحلامه.. طيف سوزان لم يتركه لحظة واحدة... هاهو يطاردها كفكرة هاربة.. ظلّ يتقلّب في سعادته مع طيفها الجميل.. صوتها العذب الرّقيق لم بفارقه.. هاهو يراها كاللّوحة المتفرّدة.. كالفكرة الملهمة التي لا يستطيع العيش بدونها.

يتأمّل انقباض فمها الصّغير.. انفلات شعرها الغجري..

حيدر يقول مع نفسه: سوزان هي التي ترويني وتشفيني من جراحي وتطفئ لهفتي وجوعي ففي ساقيها نهر.. والأرض تنبت العشب من تحت قدميها... جسدها يتدفّق شلاّل عطر.. ضحوكة تملك صوتا حريريا يردّ الروح ويقرع الهاجرة.. هاهو يشمّ رائحة الورود التي تفتّحت وانتشرت حولها.. يشعر بانهمار السّيول الذي أصبح يجري انهرا.. يشعر بها حديقة يتجوّل في فضائها ويقضم فاكهتها.. يرتوي من مائها ويحتسي رحيقها. يجني التين واللوز والخوخ والعنب...

يتأمّل سوزان يجدها موطن الخصب في هذه الحياة العقيمة.

حيدر تنزل عليه خيول الشوق دفعة واحدة..تضرم الرغبة داخله..توقظه الشهوة الجارفة.. يسترجع المشاهد التي قضاها مع سوزان....تزلزله الشهوة... هاهو الفم الصغير المنقبض والصدر الهاجم الحلمتين... يتأمّل جفنيها وشفتيها وانفلات شعرها.. يستنشق الهواء معطّرا برباها... ينهار ثم يثور منتشيا متذّكرا تلك الليلة الحمراء معها في فندق "جانت" حيث مهرجان الأغنية التارقية.. يتذّكر قامتها وهي تعرض مفاتنها ورغبتها بكل السبل من النهود إلى الخاصرة مرورا بالسّاق فالأفخاذ البيضاء الملفوفة.... هاهو مشهد سوزان نابض بالحياة أمام مخيّلته... يتخيّل نفسه يمسكها ويرشف الحبّ من

شفتيها قبلات حارّة... هاهو يلقيها على السرير.. تتأوّه.. تعضّ الوسادة حتى تكتم شهقاتها.

هاهي تتعلّق بعنقه وتخفي وجهها في صدره وهي تقول: طوبى للفارس الهمام الذي لا يشق له غبار... وراح يكسوها بذراعيه القويّتين ويقبّل يديها وعينيها وشفتيها... سوزان في نظر "حيدر" كنز من كنوز الدنيا.. بل يتجاوز ما تحوي الأرض من جواهر وحنطة وأشجار....

حيدر يرسي مراكبه في مرفأ سوزان.. يشعر بالأمن والأمان وباللذّة والمتعة الطليقة التي لا تحدّها حدود ولا تقف دونها حواجز.... حيدر يستفيق فجأة من أحلامه على صوت "مصطفى" الذي يطالبه بالسرعة.. هاهي ولاية "معسكر" على الأبواب.. يتأهب مصطفى.. يصبح أكثر حذرا رافعا رأسه محدّق العينان.. يمسك بطرف الخنجر الذي هو في جيب سترته.. هاهو يشمّ رائحة سارة مع الفاجر سالم.. رائحة نتنة يلمس فيها الغدر والخيانة.

مصطفى يستنفر للقتال ولا ينظر إلاّ لهذا السكين الذي في يده مغروسا في صدرها. يأمر حيدر بالسرعة أكثر.. هاهي مدينة معسكر مدينة هادئة ساكنة مع سكون الليل.

هاهو مصطفى يبصر سارة عارية من كل شيء..يمسكها سالم.. تطعمه من نهدها وتمسك به...

مصطفى يراهما شرارة حمراء..دم احمر.. يأمر حيدر بالتوقف عند أطراف المدينة.. ينزل بخفّة غير معهودة وهو يمسك بأطراف خنجره.. هاهو يركض وأنا أركض وراءه لأرى ما يفعله هذا الرجل المجنون.. صعد إلى عمارة بيضاء عالية ثم توقّف عند البيت الأوّل في الطّابق الثاني..

إنها بيته بدون شكّ... يتريّث برهة يبصر مصباحا منيرا خافتا. يخرج مفتاحه من جيب سترته.. يفتح الباب بهدوء ويندفع كالوحش الهمجي..

يقف في بهو المنزل مندهشا حين وجد سارة منهمكة في قراءة القرآن الكريم.. نظر إلى يمينه وجد السمّاعة مفصولة عن خيط الهاتف..

مصطفى هاله ما رأى.. فسقط على ركبتيه مذعورا وهو يقول:

كم قلت لنفسي إن بعض الظنّ إثم..إن بعض الظنّ إثم....................

انتهى 

بن الساح الأخضر من مواليد 24/04/1962
الأغواط-الجزائر

الصحراء عمق المتاهة، الصحراء فضاء مفتوح لكلّ الاحتمالات.... الصحراء سؤال مؤرق يلاحق الإنسان منذ الأزل ومن رحم الميلاد.... إنها مكان للتقاطع.... للتجاور.... للتآلف.... والتنافر.

حيدر.... الطيب.... عباس، سوزان، عائشة تامت.. شخصيات.... متنافرة.... مختلفة التكوين.... متباعدة الرؤى، تلتقي في السيارة تغامر تجازف لتقتحم عالم المجهول.... الوجهة واحدة لكن الأسباب متعددة.... والأهداف متناقضة.... الطريق واحد.... والمتاهة واحدة.... الصحراء التي تسيطر على مصطفى لتخطفه من الواقع إلى الوهم إلى حدّ الهذيان.... حيدر، يحمل مقود الأمان كدليل يرصد الطريق باحثا عن تضاريس الجسد، ليروي ظمأ الرغبة.... سوزان هي النقيض المضاد لتضاريس الصحراء جسد ابيض ناعم.... ارض خصبة للصراع وإشعال فتيل النار.... حيدر يحمل سلاحه ويقيم خيمته ويصنع مصيره.... فهو يسعى دائما إلى ما وراء التخوم.

هنا يختلط التاريخ بالسياسة وخشونة الصحراء مع رهافة الحضارة، جنوب يسعى إلى شمال ونار إلى جليد وصحراء إلى بحار.

هذا الزواج الحضاري هو الذي يمثّل متن الرواية وعالمها.

صحراء الظمأ.... بحث عن الارتواء عن الإشباع لخفايا ذات تبحث من خلال السرد عن سؤال مؤرق....

هذه تحيات قارىء ضاع بين مصطفى وحيدره، بين سارة وسوزان وبين شك قاتل، وظمإ لا يروى أبدا.



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب